

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شوقي أبو خليل

المحرق

حدّث غير مجري التاريخ

دار الفكر

تصوير ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

الطبعة الثالثة ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م
ط ١ ١٩٨٠ م



جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير ، كما يمنع الاقتباس منه ، والترجمة إلى لغة أخرى ، إلا بإذن خطي من دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر بدمشق

سورية - دمشق - شارع سعد الله الجابري - ص.ب (١٦٢) - ص.ت ٢٧٥٤
هاتف ٢١١٠٤١ ، ٢١١١٦٦ - بريقياً : فكر - تلکس 411745 Sy FKR Tx

تصدير

﴿ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في
سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند
الله ، وأولئك هم الفائزون ، يبشرهم ربهم
برحمة منه ورضوان وجنة لهم فيها نعيم
مقيم ﴾

« التوبة : ٢٠ و ٢٢ »

بسم الله القائل في محكم التنزيل : « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا
بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض
والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا^(١) » ،
وله الحمد سبحانه وتعالى .

وصلى الله على سيدنا محمد بن عبد الله ، القائل : « من كانت هجرته إلى

(١) سورة الأنفال ، الآية الكريمة : ٧٢ ،

الله عز وجل فهجرتة إلى ما هاجر إليه ، ومن كانت هجرتة لدنيا يصيبها ...
فهجرتة إلى ما هاجر إليه » ، وبعد ..

يودّع العالم الإسلامي سنة هجرية ويستقبل سنة هجرية جديدة باحتفالات
كبيرة لها رونقها الخاص لسببين اثنين :

فسنة « ١٤٠٠ للهجرة » سنة هجرية جديدة أولاً ، والأهم ثانياً : هو
وداع القرن الرابع عشر الهجري وحلول القرن الخامس عشر الهجري .

ولمطلع أي قرن هجري معنى خاص ، فرسول الله ﷺ يقول : « إن الله
يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يثجدد^(١) لها دينها » ، ومن
هنا جاء البشر والتفاؤل عند المسلمين ، مع مطلع القرن الخامس عشر الهجري ،
وجاءت الاحتفالات لتناسب جلال الذكرى ، وعظيم البشرى التي زفّها إلينا
رسول الله ﷺ ، مع مطلع كل قرن .

إنها الهجرة النبوية الشريفة في عامها الأربعمئة بعد الألف ، نستقبلها
بذكريات وعبر ، وروحانية خاصة ، وأمل عريض في التجديد .

إنها الهجرة ... مبدأ تأريخ هذه الأمة المسلمة ، التي ارتضاها الصحابة
الكرام ، واختاروها ممّا سواها من أحداث هامة عظيمة .

ففي السّنة الثالثة من خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله
عنه^(٢) ، جمع الصحابة السابقين الأولين ، وقال لهم : إن الأموال قد كثرت ،

(١) حديث شريف صحيح ، اتفق البخاري ومسلم على الاحتجاج به ، قال المناوي في فتح القدير :
أخرجه أبو داود في الملاحم ، والحاكم في الفتن ، والبيهقي في كتاب المعرفة عن أبي هريرة ، وقال الزين
المراقي وغيره : سنده صحيح .

(٢) وقيل إن التاريخ الهجري وضع سنة ١٧ هـ ، فإن صح القول فيكون وضع التاريخ الهجري في
السنة الرابعة من خلافة سيدنا عمر رضي الله عنه ، وسبب وضعه بالاضافة الى ما سبق اعلاه ، أنهم
كانوا يسمون كل سنة بحادثة وقعت فيها ، فسأله بعض الصحابة في تغيير ذلك لصعوبته على من السنين ،
كما كتب أبو موسى الأشعري لعمر رضي الله عنهما : إنه يأتينا من أمير المؤمنين كتب ليس لها تاريخ ،
ولا ندرى بأيها نصل .

وما قسمنا منها غير موقت — أي غير محدد بتاريخ ينضبط به — فكيف التوصل إلى ما يضبط ذلك ؟ لقد رُفِعَ إليَّ صكٌّ موعده شعبان ، فلا أدري أي شعبان هو ؟! الذي مضى ؟ أم الذي نحن فيه ؟ أم الآتي ؟ ضعوا للناس شيئاً يَعْرِفُونَ به •

ناقش الصحابة الأمر ، وتداولوا في هذه المسألة المهمة ، فمن قائل : اكتبوا على تأريخ الروم ، وقائل : اكتبوا على تأريخ الفرس ، فأبى عمر رضي الله عنه إلا أن يجعل تأريخ الإسلام متميِّزاً ، وإشارة إلى حادث إسلامي كبير •

فأشار بعضهم بأن يجعلوه مولد الرسول الكريم ﷺ ، وأشار بعضهم بأن يجعلوه وفاته ، وأشار علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بجعله خروج النبي ﷺ من أرض المشركين ، أي يوم هجرته من مكة إلى المدينة ، فراقت الفكرة لأمر المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولسائر الصحابة ، لما حققته الهجرة من انتصار الإسلام وانتشاره ، فاتفقوا على أن يكون مبتدأ التأريخ الإسلامي هو وقت الهجرة ، ولهذا سُمِّيَ التاريخ الهجري •

ولما كانت الهجرة قد حدثت في ربيع الأول ، فإن آراء الصحابة تعددت حول الشهر الذي سيُعتبر بداية السنة الهجرية ، وانتهت آراؤهم إلى الموافقة على رأيٍ عرضه عثمان بن عفان رضي الله عنه ، هو أن يكون المحرم مبدءاً للتأريخ الإسلامي ، لأن المحرم هو أول السنة العربية في الجاهلية •

وهكذا •• صار أول المحرم أول السنة الهجرية الأولى ، ويوافق ذلك للسادس عشر من يولية « تموز » سنة ٦٢٢ م ، وظل التأريخ الهجري بشهوره القمرية قائماً إلى اليوم ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها^(١) •

ومن أوضح الأدلة على أن الهجرة — التي نستقبلها ونحتفل بذكرها —

(١) راجع « الوعي الإسلامي » العدد : ١٢١ ، غرة المحرم ١٣٩٥ هـ ، مقال الشيخ عبد الله كنون ، ص : ٢٦ ، والاستاذ عبد الله الكبير ، ص : ٥٢ ، والدكتور عماد الدين خليل ، ص : ١٢ •

الأربعمئة بعد الألف - حدث عظيم في حياة الإسلام ، أن الصحابة رضي الله عنهم جعلوها مبدأ التاريخ ، فلم يؤرخوا بسولده ﷺ ، ولا بمبعثه ولا بغزوة بدر الكبرى التي سجلت أول انتصار للإسلام على الشرك ، ولا بفتح مكة الذي طهر البيت الحرام من عبادة الأصنام ورجس الأوثان ، ورفع راية التوحيد على جزيرة العرب ، فأصبحت مناراً يهتدي به العالم في ظلمات الجهل والاشراك ، ولا بوفااته ﷺ .

إن كل هذه الأحداث تصلح لأن تكون مبدأ للتاريخ الإسلامي ، لولا ما يقترب بكل منها من معنى يتضاءل أمام ما أدت إليه الهجرة من نتائج لا تتشابه الدعوة .

فالميلاد وإن كان هو مبدأ انبثاق النور المحمدي ، إلا أنه ربما صرف الناس إلى الاهتمام بذات الشخص ، والإسلام أتى حرباً على هذا الاهتمام ، فإنه قاد النصارى إلى تأليه المسيح عليه السلام .

والبعثة في الحقيقة أول مظهر تجلّت فيه عناية الله لهداية الخلق من جديد ، بعد أن انحرفوا عن الصراط المستقيم ، وما أتاهاهم به الرسل السابقون من شرع ودين . ولكن أثرها لم يظهر ظهوراً يبيّن ، ولم يتحقّق المراد منها إلا بعد الهجرة ، وقد ذاق المسلمون في أعقابها الأمرين ، وهاجروا فراراً بدينهم إلى الحبشة ، وكانت الأعوام التي تلتها فترة امتحان شديد لهم ، وللنبي نفسه عليه الصلاة والسلام .

كذلك معركة بدر الكبرى وفتح مكة ، فإنهما معركتان هامتان أدال الله عز وجل بهما للمسلمين من عدوّهم ، وأعقبهم نصراً وتمكيناً ، وإننا إذا نظرنا إلى الأمر بعين الواقع ، نجد أنّهما ثمرتان من ثمار الهجرة وخيرها وبركتها .

أما وفاته ﷺ ، فلم يقل بها أحدٌ . . . لما ينال المسلمين من الحزن عليه ، وتجده عند كتابة التاريخ بهذه المناسبة المؤلمة .

فالهجرة حدث غير مجرى التاريخ ، إنها المنطلق العملي ، والموقف الحاسم في تاريخ الإسلام ، وكل ما تحقق بعدها من منجزات ، وتتابع من نجاحات وانتصارات ، محسوب عليها ، وراجع إليها .

إنها مرحلة انتقال من أرض حُجِّبَتْ عنها أنوارُ النبوة ، وغابت عنها شمس الهداية والمعرفة ، فحسبوا الشرك ديناً ، وسفك الدماء شجاعة ، وانتهاك الحرمات اقداًماً ، ووَادَ البنات عفافاً وشرفاً ، وخَيَّلَ إليهم أن هذا هو السؤدد والشرف والرفعة والكمال ، ومن لم يسلك طريقهم اجمعوا على محاربته ، والكيد له ، حتى يخوض باطلهم ، ويمشي في ضلالهم^(١) .. إلى أرض سطع بها نور الإسلام ، وفتحت أبواب الخير عندها ، فكان حادث الهجرة فرقاً بين الضعف والقوة ، والذل والعز ، والحق والباطل ، والخير والشر ، وكان فيها هداية الناس ، وسعادة البشر ، تغير له وجه الزمان ، وانقلبت الأوضاع ، وتجلت فيه قوة العزيمة ، وكمال البطولة ، وصدق الإرادة ، وغاية التضحية والايثار كأثر من آثار الإيمان الحق الصادق .

فالهجرة النبوية الشريفة ، المتنفّس السليم ، والانطلاقة الرائدة ، والدافع المتين إلى البذل والعطاء والتضحية والفداء .

إنها الحدث العظيم الضخم ، الذي دلّ على الإرادة الصلبة ، وعلى نتائج الصبر والثبات الطيبة .

إنها الحد الفاصل بين الباطل وطفئانه وظلمه وتجبّثه ، وبين الحق وعدالته وسلامه وسماحته .

إنها الهجرة النبوية الشريفة .. التضحية الكبيرة من النبي ﷺ ومن المهاجرين ، عندما تركوا الأرض والمال والأهل في سبيل العقيدة وحرّيتها ، والدفاع عنها ، وقد قبلت بتضحية صادقة من الأنصار ، لا مثيل لها في تاريخ الانسانية .

(١) من « عظمة محمد » للشيخ عبد الغني حمادة « بتصرف » .

فالهجرة .. قيام الدولة العربية الاسلامية على أسس راسخة سليمة ،
وتهيئة الظروف لبقائها واستمراريتها ، ورسمت للحياة العربية وجهاً مسلماً جديداً
في كل شيء . وكانت بداية الفتوح العربية الإسلامية العالمية . فانهارت دولة
الروم ودولة الفرس .

إن جيش الجيل المسلم الذي تربى في مكة قبل الهجرة ، ونظم شؤون دولته
بعد الهجرة ، فتح نصف العالم في نصف قرن ، ووصل مُحَرَّرًا مُعَلِّمًا داعياً
لأسمى مبادئ عرفتها الإنسانية حدود الصين شرقاً ، وأعماق منغوليا وسيبيريا
شمالاً ، وضواحي باريز غرباً ، وأعماق القارة الافريقية جنوباً .

إنه الإسلام — الدين الذي ارتضاه الله لعباده — ، الدين الذي ثبتت أركانه
منذ الهجرة ، وما يزال إلى يومنا هذا يشغل العالم أجمع من أمريكا حتى اليابان ،
مروراً بأوروبا و انتهاءً بجزر فيجي في شرق استرالية ، أينما اتجهت وجدت
مركزاً إسلامياً ، وأتباعاً جدداً ، لصاحب ذكرى الهجرة ، من أبناء الدول الأجنبية .
إنه القرن الخامس عشر الهجري .. الذي تأمل أن نرى في سِنِيَّته الأولى
من يجدد للأمة أمر دينها ، إنها بشرى رسول الله ﷺ . وما هي إلا عشرون سنة
من عمر التجديد وينتهي القرن* العشرون للميلاد ، ليبدأ قرن* ميلادي جديد ،
وعندها سيكون الإسلام شغل العالم الشاغل ، وتكون أوربة قد وجدت
ضالتها، وانتهت من أزمات شعوبها النفسية، ومن فراغها الروحي باعتناقها الإسلام .
ونحن مشاركة منا بحلول القرن الهجري الجديد ، نقدم هذا الكتاب عن
الهجرة ، أسبابها ، وأحداثها ، ونتائجها ، وَحَظْنَا منها اليوم . تتبعه بكتب أخرى
عن غزوات المصطفى ﷺ ، كأجزاء متممة لسلسلة « المعارك الكبرى في تاريخ
الإسلام » ، وسيكون الجزء الثاني عشر من هذه السلسلة عن « غزوة بدر
الكبرى » إن شاء الله ، آمليْن من الله التوفيق والعون ، عليه توكلنا ، ففي سبيله
نعمل ، ولرضاه نسعى ، إنه من وراء القصد .

شوقي أبو خليل

النشام في ٢٤ شوال ١٣٩٩ هـ
الموافق : ١٥ ايلول ١٩٧٩ م

الهجرة إلى الحبشة

« فاصدع بما تؤمر وأعرض عن

المشركين » .

« قرآن كريم »

بقيت الدعوة الإسلامية في مكة سريّة ثلاث سنوات ، أسلم خلالها صفوة من الصحابة الكرام ، وقد اتخذت من دار الأرقم بن أبي الأرقم مقراً لها . ثم نزلت آيات مباركات ، أمرت النبي ﷺ أن يجهر بالدعوة : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين^(١) » ، « وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين^(٢) » .

فصعد رسول الله ﷺ الصفا^(٣) ، ونادى : يا معشر قريش ، فقالت قريش : محمد على الصفا يهتف ، فأقبلوا واجتمعوا وقالوا : مالك يا محمد ؟ قال ﷺ : رأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل ، أكنتم تصدقوني ؟ قالوا : نعم ، أنت عندنا غير مسّهم ، وما جربنا عليك كذباً قط . قال ﷺ : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . يا بني عبد المطلب ، يا بني عبد مناف ، يا بني زهرة — حتى

(١) سورة الحجر ، الآية الكريمة : ٩٤ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية الكريمة : ٢١٥ .

(٣) مكان مرتفع في أسفل جبل أبي قبيس في مواجهة الكعبة المشرفة من الجهة الشرقية ، وللجهر بالدعوة راجع : الطبري ، ج : ٢ ، ص : ٢١٨ ، والكمال في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٤٠ ، والبداية والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ٢٨ .

عدد الأفخاذ من قريش — إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين ، وإنني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً ، إلا أن تقولوا لا إله إلا الله . فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ، ألهذا جمعنا ١٩

وهكذا أعلنت الدعوة ، وأخذَ النبي ﷺ يقف في الأسواق داعياً الناس : « أيها الناس ، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » . وتناثرت الآيات تركّز على عبادة الله وحده ، وترك الأصنام والأوثان . ولكن كفار قريش لم يفكروا في مناقشة ما يسمعون ، بل كذبوا النبي ﷺ تارة ، ورموه بالجنون أو بالسحر تارة أخرى .

ولما رأت قريش الجد من رسول الله ﷺ في دعوته ، فاوضت عمه أبا طالب في أمره ، وتقدم عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو البخثري بن هشام ، والأسود بن المطلب ، والوليد بن المغيرة ، وأبو جهل بن هشام ، والعاص بن وائل السهمي ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وغيرهم ، وقالوا : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفّه أعلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخطّي بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه . فردّهم أبو طالب ردّاً رقيقاً . بقول جميل . ومضى رسول الله ﷺ في دعوته إلى الله عز وجل . فتضاعف عدد المسلمين . فمشى زعماء قريش ثانية إلى أبي طالب ، وقالوا : يا أبا طالب ، إن لك سيناً وشرفاً ومنزلة فينا وإنا قد اشتيناك أن تنهى ابن أخيك فلم تفعل ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آلهتنا وآباءنا ، وتسفيه أعلامنا حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين .

• وأعلم أبو طالب رسول الله ﷺ ما قالت قريش ، وقال له أبق على نفسك وعليّ ولا تحملني مالا أطيع . فظن رسول الله ﷺ أن عمه خذله ، وضعف عن نصرته ، فقال له (١) : « يا عماء والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » . فقال أبو طالب : « اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً » .

(١) الكامل في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٤٣ ، والطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣٢٦ .

وهكذا وقف ﷺ بروح معنوية عظيمة أمام قومه كلهم ، متمسكاً بالدعوة إلى الله سبحانه إلى النهاية .

وأغضب قريشاً سخريّة رسول الله ﷺ من أصنامها ، كما أغضبها ازدياد أتباع محمد « يتيم أبي طالب » ، فمشت إلى أبي طالب تحمل معها عثمارة بن الوليد لتقول له : يا أبا طالب هذا عثمارة بن الوليد ، فتى قريش ، وأشعرهم وأجملهم ، فخذ فلك عقله ونصرته ، فاتخذه ولداً ، وأسلم لنا ابن أخيك هذا الذي سفته أحلامنا ، وخالف دينك ودين آبائك ، وفرّق جماعة قومك تقتله ، فإنما رجل برجل .

فقال أبو طالب : والله لبئس ماتسوموني ! أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه ؟ هذا والله لا يكون أبداً . فقال المطعم بن عدي : لقد أنصفك قومك ، وما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً . فقال أبو طالب : والله ما أنصفوني ، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم عليّ ، فاصنع ما بدا لك (١) .

فلما يشت قريش من إجابة طلبها ، اشتدت على من أسلم ، ووثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنوهم عن دينهم ، وقام أبو طالب في بني هاشم ، فدعاهم إلى منع رسول الله ﷺ ، فأجابوه الى ذلك .

أسباب الهجرة إلى الحبشة

اشتد البلاء على أصحاب رسول الله ﷺ ، وهو في حماية عمه أبي طالب ، غير أنه ﷺ كان لا يقدر أن يمنهم مما هم فيه من البلاء .
ومن الذين عذبوا عذاباً شديداً دل على مبلغ تعصب وقسوة قريش ،

(١) الطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣٣٦ .

بلال بن رباح الحبشي ، فكان إذا حميت الشمس وقت الظهيرة يلقيه سيده أمية بن خلف الجمحي في الرمضاء على وجهه وظهره ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتلقى على صدره ، كي يكفر بمحمد ويعبد اللات والعزى ، غير أن بلالاً وهو في هذه الحال كان يقول : أحد ، أحد ، أحد .

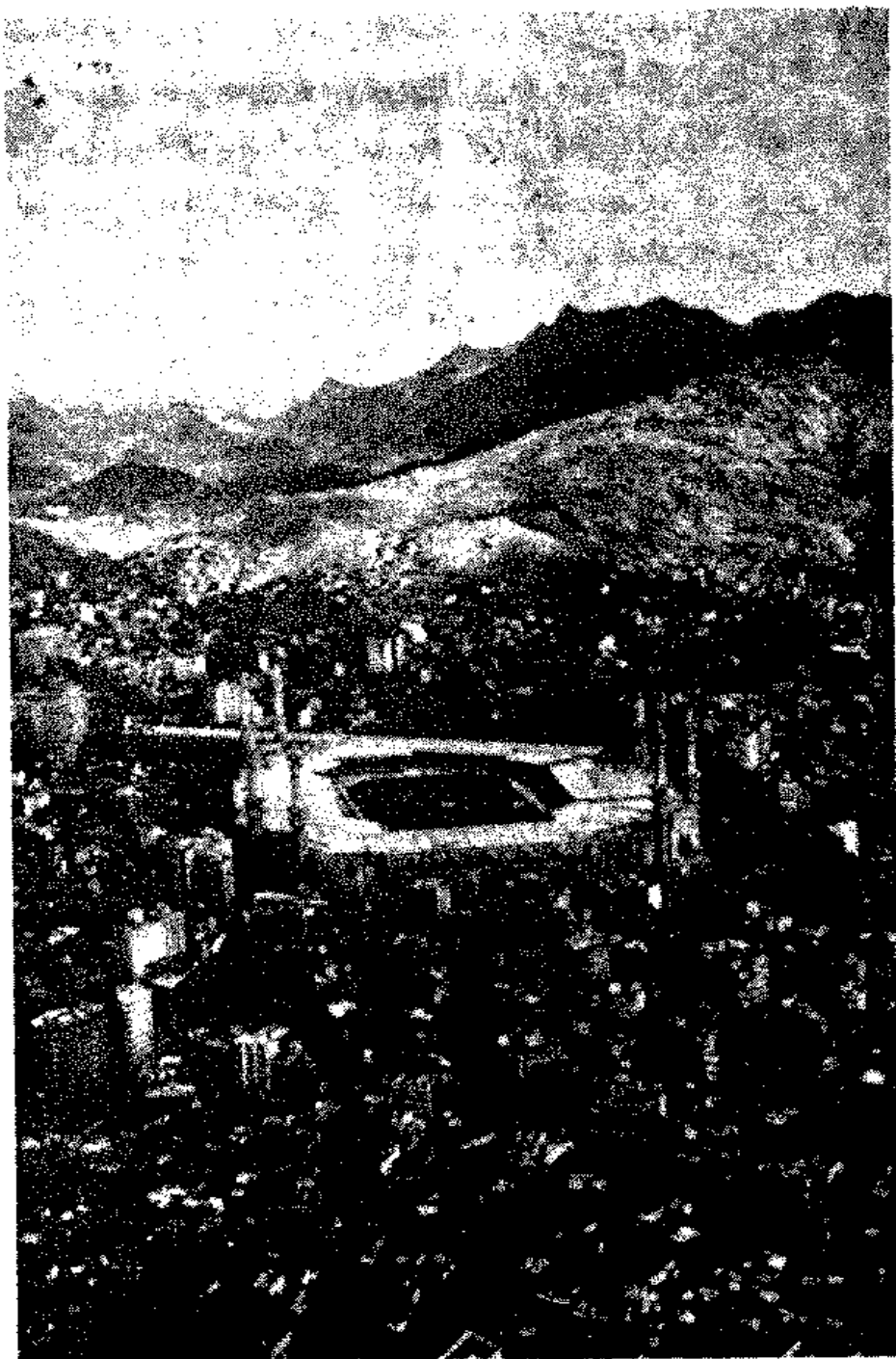
ومن المستضعفين المعذبين أبو اليقظان عمار بن ياسر مع أبيه وأمه ، ويمر النبي ﷺ بهم يعذبون فيقول : « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة » ، ومات ياسر في العذاب ، وطعن أبو جهل سمية بحربة فماتت ، لتكون أول شهيد في الإسلام .

وعذَّب خبَّاب بن الأرت ، وصهيب بن سنان الرومي ، وعامر بن فهيرة^(١) . حتى أن عقبة بن أبي معيط آذى النبي ﷺ بفناء الكعبة ، عندما أخذ بمنكب رسول الله فلفه ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً ، فجاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه فدفعه عن رسول الله ﷺ ، ثم قال : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله !!

وهكذا اشتد العذاب على المسلمين رجالاً ونساءً ، وصار أذى المشركين الوثنيين لا يطاق ، فقال رسول الله ﷺ للمسلمين : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد » ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه^(٢) . فخرج عند ذلك قسم من الصحابة إلى الحبشة ، مخافة الفتنة ، وفراراً إلى الله بدينهم ، فكانت أول هجرة في الإسلام .

(١) راجع « حياة الصحابة » لمحمد يوسف الكاندهلوي باب : « تحمل الشدائد في الله » ، ص : ٣٨٥ . فمن الذين عذبوا أيضاً : عثمان بن عفان ص : ٤٢٢ ، وطلحة بن عبيد الله ص : ٤٢٣/٤٢٢ ، والزبير بن العوام ص : ٤٢٤ ، وأبو ذر الففاري ص : ٤٢٣ ، ومصعب بن عمير ص : ٤٤٥ ، وعبد الله بن حذافة السهمي ص : ٤٤٦ . ثم ذكر عامة الصحابة ص : ٤٤٧ .

— وراجع الكامل ، ج : ٢ ، ص : ٤٥ وما بعدها ، بحث « ذكر المستضعفين من المسلمين » .
(٢) ابن هشام ، ج : ١ ، ص : ٢٨٠ ، والكامل في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٥١ . والطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣٣٠/٣٢٩ .



« مكة المكرمة »

هاجروا فراراً من الأذى والاضطهاد ، كي لا يصل الأذى والاضطهاد إلى درجة الموت ، كما حصل لوالد عمار وأمه .. ماتا تحت المذاب .. وهؤلاء ما تنعموا بنعمة الإسلام بالمجان ، فما ولدوا مسلمين ، ولا كانت البيئة من حولهم مسلمة فكانوا مسلمين . لقد فُتحت عيونهم في بحر من الوثنية والأصنام ، وفي بحر من الجهل والظلام الفكري ، فدفعوا ثمن الإسلام غالياً ، عذاباً متواصلاً ، وخوفاً ورعباً ، وجوعاً وسجناً واضطهاداً ، وسباباً وشتمية ، وطرذاً وهجرة .

وكان ممن هاجر إلى الحبشة : عثمان بن عفان ومعه زوجه رقية بنت رسول الله ﷺ ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ومعه امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو ، والزبير بن العوام ، ومصعب بن عمير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو سلمة بن عبد الأسد ومعه امرأته أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة ، وعثمان بن مظعون ، وعامر بن ربيعة مع امرأته ليلى بنت أبي حشمة ، وأبو سبرة بن أبي رهم ، وسهيل بن وهب بن ربيعة .

فكان هؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة .
ثم خرج جعفر بن أبي طالب ، وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة (١) ..

طَلَبُ الْمُهَاجِرِينَ مِنَ النَّجَاشِيِّ

ولم تكتفِ قريش بإيذاء الصحابة في الحجاز ، بل أرسلت وراءهم وفداً إلى الحبشة ، طلب من ملكها النجاشي تسليمهم كي يفتنهم عن دينهم ، والمقصود من الفتنة إرجاع المسلم عن دينه ، والموت على الإيمان أسهل بكثير من الفتنة

(١) راجع أسماؤهم عند الضرورة في ابن هشام ، ج : ١ ، ص : ٢٨٤/٢٨٥ .

والكفر بالله ونبيّه (١) . .

لقد رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد آمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة ، وأنهم قد أصابوا بها داراً وقراراً ، فقررت أن تبعث رجلين جليدين إلى النجاشي ليردّ المهاجرين عليها فبعثت قريش عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة ، وجمعت لهما هدايا عظيمة للنجاشي ول كبار حاشيته .

تقول أم سلمة بنت أبي أمية : لما نزلنا أرض الحبشة ، جاورنا بها خير جار النجاشي ، أمينا على ديننا ، وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه ، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جليدين ، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة ، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم « الجلود » فجمعوا له أدماً كثيراً ، ولم يتركوا من بطارقتة بطريقاً إلا أهدوا له هدية ، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص ، وأمروهما بأمرهم ، وقالوا لهما : ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلمكما النجاشي فيهم ، ثم قدما إلى النجاشي هداياه ، ثم أسألاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم . فلم يبق من بطارقتة بطريق إلا دفعها إليه هديته قبل أن يكلمها النجاشي ، وقالوا لكل بطريق منهم : إنه قد ضوى « لجأ » إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع ، لا نعرفه نحن ولا أئمتنا ، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم ، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم ، فإن قومهم أبصر بهم من غيرهم ، وأعلم بما عابوا عليهم . فقالوا لهما : نعم .

وقدّم ابن أبي ربيعة وابن العاص هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما ، ثم كلماه ، فقالا له : أيها الملك . . إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا

(١) ابن هشام ، ج : ١ ، ص : ٢٨٨ . وتاريخ الامم الاسلامية ، الجزء الاول ، صفحة : ٧٥ ، والطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣٣٥ . والكامل في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٥٤ . واخبار الهجرة الاولى الى الحبشة في السيرة الحلبية ، ج : ١ ، ص : ٣٥١ . وفي البداية والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ٦٦ .

دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك وجأؤوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائهم لتردهم إليهم ، فهم أعلم بهم من غيرهم ، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه •

قالت البطارقة للنجاشي قبل أن يجيب بشيء ، صدقاً أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم إليهما فليردهم إلى بلادهم وقومهم • فغضب النجاشي ، ثم قال : لا والله ، إذن لا أسلمهم إليهما ، ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي ، واختاروني على من سواي ، حتى أدعوهم فأسلمهم عما يقول هذان في أمرهم ، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ، ورددتهم إلى قومهم ، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما ، وأحسن جوارهم ما جاوروني •

بين المهاجرين والنجاشي :

دعى النجاشي المهاجرين المسلمين • فتشاوروا قبل حضورهم في الأمر ، واتفقوا أن يقولوا ما علمهم إياه رسول الله ﷺ ، كائناً في ذلك ما هو كائن ، فلما جأؤوا وجدوا النجاشي قد نشر بأيدي أساقفته الصحف من حوله ، فقال : ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل (١) ؟

فتقدم جعفر بن أبي طالب فقال : أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسلاً منا ، نعرف نسبهم وصدقهم وأمانتهم وعفافهم ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبد ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والذمام • ونهانا

(١) ابن هشام ، ج : ١ ، ص : ٢٩٠ • والتكامل في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٥٥ ، والبداية والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ٧٠ •

عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام — وعدد على النجاشي أمور الإسلام — ثم قال جعفر : فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئاً ، وحرّمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا . فعدا علينا قومنا ، فمذبونا ، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا أن لا تظلم عندك أيها الملك (١) .

وقبل أن نذكر موقف النجاشي ، نجد أن كلام جعفر اشتمل على أربع نقاط رئيسية : وصف حال العرب قبل الإسلام ، ثم ذكر ما جاء به الإسلام ، وبعدها نتيجة اتباع المسلمين لرسول الله ﷺ ، وأخيراً .. قول جعفر رضي الله عنه « واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا أن لا تظلم عندك أيها الملك » كلام يخاطب قلب وعاطفة النجاشي ، وهذه حكمة ليتخذ النجاشي قراره الأخير بحق جماعة استجاروا به ، فلينظر ما يفعل بهم وهم المستجيرون به بغض النظر عن عقيدتهم .

قال النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟

فأجاب جعفر : نعم .

فقال النجاشي : فاقرأه علي . فقرأ عليه جعفر أول سورة مريم : « كَمِيعَصْ ، ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ، إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ، قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْئاً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ... » .

فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته ، وبكى أساقفته حتى اخضلت لحاهم

(١) ابن هشام ، ج : ١ ، ص : ٢٩٠ / ٢٩١ .

وصحائفهم ، حين سمعوا ما تلا عليهم • ثم قال النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة • ثم توجه في حديثه إلى عبد الله بن أبي ربيعة ، عمرو بن العاص وقال : انطلقا ، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون^(١) •

فخرجوا من عنده ، فقال عمرو بن العاص : والله لآتينه غداً بما أستأصل به خضراءهم ، ولأخبرنه أنهم يزعمون أن إلهه الذي يعبد عيسى بن مريم عبد • فقال له عبد الله بن أبي ربيعة : لا تفعل فإنهم وإن كانوا خالفونا فإن لهم رحماً وحقاً ، فقال : والله لأفعلن ! فلما كان الغد دخل عليه فقال : أيها الملك ، إنهم يقولون في عيسى قولاً عظيماً ، فارسل إليهم فسلمهم عنه •

فبعث إليهم ، واجتمع القوم ، وقرّر المسلمون المهاجرون أن يقولوا بعيسى بن مريم ما قال الله ، وما جاء به رسول الله ﷺ كائناتاً في ذلك ما هو كائن • فسألهم النجاشي : ماذا تقولون في عيسى بن مريم ؟

فقال جعفر بن أبي طالب : نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول •

فضرب النجاشي بيده إلى الأرض ، فأخذ منها عوداً ، ثم قال : والله ما عدا عيسى بن مريم مما قلت هذا العويد ، فتناخرت بطارفته حوله حين قال ما قال ، لأن جعفر لم يذكر أن عيسى ابن الله ، فقال النجاشي : وإن نخرتم والله ، اذهبوا — يخاطب المهاجرين — فأنتم شيوم^(٢) بأرضي ، والشيوم : الآمنون ، من سبكم غرم ، من سبكم غرم ، من سبكم غرم ••

ثم أمر برد هدايا قريش ، وقال : لا حاجة لي بها ، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي ، فأخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس في فأطيعهم

(١) هذه رواية ابن هشام ، ج : ١ ، ص : ٢٩٠ • أما رواية الحافظ ابن كثير في « البداية والنهاية » ، ج : ٣ ، ص : ٧٤ فهي : « إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التي جاء بها موسى ، انطلقوا راشدين ، لا والله لا اردهم عليكم » •

(٢) هي في بعض الروايات « سيوم » ، كالبتدية والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ٧٤ •

فيه • فخرج عبد الله بن أبي ربيعة ، وعمرو بن العاص مردوداً عليهما ما جاء به ، وأقام المسلمون عند النجاشي بخير دار ، مع خير جار •

المهاجرون يفرحون بانتصار النجاشي :

حزن المسلمون المهاجرون حزناً كبيراً ، عندما نازع رجل " النجاشي " في ملكه ، وخافوا أن يظهر ذلك الرجل على النجاشي ، فيأتي رجل لا يعرف من حقهم ما كان النجاشي يعرف منه ، فسار النجاشي إليه • وخرج المسلمون يستطلعون الخبر ، حتى وصلوا ضفة النيل ، ففصلتهم عن ملتقى القوم ، وسألوا بعضهم : من رجل يخرج حتى يحضر وقعة القوم ، ثم يأتينا بالخبر ؟

فقال الزبير بن العوام : أنا — وكان من أحدث القوم سناً — فنفضوا له قرية فجعلها في صدره ، ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم ، ثم انطلق حتى حضرهم ، ودعا المسلمون الله تعالى للنجاشي بالظهور على عدوه ، والتمكين له في البلاد ، وعاد الزبير وخرج من ماء النيل وهو يقول : ألا أبشروا ، فقد ظفر النجاشي ، وأهلك الله عدوه ، ومكّن له في بلاده ، ففرح المسلمون المهاجرون^(١) •

وقال ملا للنجاشي : إنك قد فارقت ديننا ، وخرجوا عليه ، فأرسل إلى جعفر وأصحابه ، وهياً لهم سفناً ، وقال : اركبوا فيها وكونوا كما أنتم ، فإن هُزمت فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم ، وإن ظفرت فابتوا ، ثم عمد إلى كتاب ، فكتب فيه : هو يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، ويشهد أن عيسى ابن مريم عبده ورسوله وروحه ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، ثم جعله في قبائه عند المنكب الأيمن ، وخرج إلى الناس وقد صفّوا له ، فقال : يامعشر الحبشة ، ألسن أحق الناس بكم ؟ قالوا : بلى ، قال : فكيف رأيتم سيرتي فيكم ، قالوا :

(١) ابن هشام ، ج : ١ ، ص : ٢٩٢ •

خير سيرة ، قال : فما لكم ؟ قالوا : فارقت ديننا ، وزعمت ان عيسى عبد ، قال :
فما تقولون انتم في عيسى ؟ قالوا : نقول هو ابن الله ، فقال النجاشي وقد وضع
يده على صدره حيث الكتاب في قبائه ، وأنا أشهد هذا ، لم يزد على هذا شيئاً ،
وإنما يعني ما كتب • فرضوا وانصرفوا • وبلغ ذلك النبي ﷺ ، فلما مات النجاشي
صلى عليه ، واستغفر له •

ازدياد حقد قريش بإسلام عمر بن الخطاب

قدم عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص على قريش يحملان خيبة
وفشلاً ، فزاد حقدها (١) ، وبخاصة بعد أن أسلم عمر بن الخطاب « وكان رجلاً
ذا شكيمة لا يرام ما وراء ظهره » فامتنع به أصحاب رسول الله ﷺ ، كما امتنعوا
بإسلام حمزة بن عبد المطلب ، حتى غلبوا قريشاً فصلثوا عند الكعبة •

لقد كان إسلام عمر فتحاً ، وستكون هجرته نصراً ، وإمارته رحمة (٢) •
أسلم عمر وكبر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف المسلمون أن عمر قد أسلم ،
وعرفوا أنهم بإسلامه وإسلام حمزة سيمنعون ، وسينتصفون بهما من عدوهم •
وهذا ما كان ••

قال عمر لما أسلم : أي قريش أنقل للحديث ؟

ف قيل له : جميل بن معمر الجمحي ، وكان يقال له « ذو القلبين » ، ففدا
عليه عمر وقال له :

— أعلمت يا جميل أنني قد أسلمت ودخلت في دين محمد (٣) ؟

(١) عيون الأثر ، ج : ٢ ، ص : ١٢١ ، والبداية والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ٧٩ •

(٢) الكامل في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٥٧ ، والسيرة الحلبية ، ج : ١ ، ص : ٣٥٢-٣٥٩ •

(٣) إسلام عمر رضي الله عنه في البداية والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ٨٠ •

فقام جميل يجره رداءه واتبعه عمر ، وصرخ جميل في المسجد الحرام :
يا معشر قريش - وهم في أندية حول الكعبة - ألا إن عمر بن الخطاب قد
صبا ، فقال له عمر من خلفه : كذب ، ولكنني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله
وأن محمداً عبده ورسوله . وثاروا إليه فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى زجر
العاص بن وائل السهمي قريشاً .

ثم سار إلى أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ ، سار إلى أبي جهل ، وضرب
عليه الباب ، فقال أبو جهل : مرحباً وأهلاً بابن أختي ، ما جاء بك ؟ قال عمر :
جئت لأخبرك أنني قد آمنت بالله وبرسوله محمد ، وصدقت بما جاء به ، قال عمر :
فضرب الباب في وجهي وقال : قبّحك الله ، وقبّح ما جئت به .

المقاطعة

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلداً أصابوا فيه أمناً
وقراراً ، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم ، وأن عمر قد أسلم ، وحمزة
أسلم ، وجعل الإسلام يفشو في القبائل ، اجتمعوا واثتمروا أن يكتبوا كتاباً
يتعاقدون فيه على بني المطلب ، على أن لا يتزوجوا إليهم ، ولا يزوجهم ،
ولا يبيعوهم شيئاً ، ولا يبتاعوا منهم ، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة ،
ثم تماهدوا وتواثقوا على ذلك ، وعكقوا الصحيفة في جوف الكعبة ، توكيداً
على أنفسهم^(١) .

فلما فعلت قريش ذلك انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب ،
فدخلوا معه في شيعته ، واجتمعوا إليه ، وخرج من بني هاشم أبو لهب عبد العزى

(١) ابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ٣ ، وعيون الآثار ، ج : ٢ ، ص : ١٢٦ ، والتكامل في التاريخ ،
ج : ٢ ، ص : ٥٩ ، والطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣٤١ ، والسيرة الحلبية ، ج : ١ ، ص : ٢٧٢ ، والبداية
والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ٨٤ .

ابن عبد المطلب إلى قريش ، فظاهروهم ، فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً ، حتى جهدوا ، لا يصل إليهم شيء ، إلا سراً ، مستخفياً به من أراد صلتهم من قريش .
وأحكم أبو جهل الحصار على المسلمين ، ولما رأى حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد ومعه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة بنت خويلد ، وهي في شعب أبي طالب ، تعلق به وزجره قائلاً : أتذهب بالطعام إلى بني هاشم ؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة ، فجاءه أبو البختري بن هشام بن الحارث بن أسد ، فقال لأبي جهل : مالك وله ؟

فقال أبو جهل : يحمل الطعام إلى بني هاشم .

فقال أبو البختري : طعام كان لعنته عنده ، بعثت إليه فيه ، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ؟ خلّ سبيل الرجل ، فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه ، فأخذ أبو البختري لحى بعير فضربه به فشجّه ، ووطئه وطأ شديداً ، وقريش تكره أن يبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه فيشتتوا بهم (١) .

العائدون من أرض الحبشة

فشل وفد قريش إلى الحبشة ، فلجأت إلى حيلة جديدة ، ترجع بها المسلمين المهاجرين ، فأشاعت أن أهل مكة أسلموا ، ووصل ذلك الحبشة ، فأقبل المهاجرون ، حتى إذا دنوا من مكة ، علموا أن إسلام أهل مكة كان باطلاً ، فلم يدخل منهم أحد إلا بجوار ، أو مستخفياً . . فمنهم من أقام حتى هاجر إلى المدينة فشهد بدرًا ، ومنهم من حبس حتى فاته بدر وغيره ، ومنهم من مات في مكة .

هاجر المسلمون إلى الحبشة ، هجرة أولى كان فيها اثنا عشر رجلاً وأربع نسوة ، وهجرة ثانية كان فيها ثلاثة وثمانون رجلاً وثمانية امرأة (٢) .

(١) ابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ٤ - ٥ ، والسيرة الحلبية ، ج : ١ ، ص : ٢٧٣ أخبار الصحيفة .
(٢) عيون الأثر ، ج : ١ ، ص : ١١٥ والطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣٤١ .

بدؤوا بالعودة الى المدينة بعد الهجرة وكان آخرهم جعفر بن أبي طالب ، الذي عاد في السنة الثامنة للهجرة عند فتح خيبر •

نفض الصَّحِيفَة

كان هشام بن عمرو بن ربيعة بن الحارث ذا شرف في قومه ، وهو ابن أخي فضلة بن هشام بن عبد مناف لأمه ، لذا • • فقد وصل بني هاشم ، وأعان المسلمين في حصارهم ، فكان يأتي بالبعير وقد أوقره طعاماً ، حتى إذا أقبل به إلى قم الشعب خلع خطامه من رأسه ، ثم ضرب على جنبه فيدخل الشعب عليهم^(١) • ولا شك أنه كان لهذا العمل أهميته ، فقد وصل المسلمون إلى حالة من الشدة أكلوا بها ورق السمر ، والجلود اليابسة ، وكل ما تصل إليه أيديهم ، أي شيء كان •

وسار هشام إلى زهير بن أبي أمية بن المغيرة — وكانت أمته عاتكة بنت عبد المطلب — فقال : يا زهير ، أقدر رضىت أن تأكل الطعام ، وتلبس الثياب ، وتنكح النساء ، واخواتك حيث قد علمت ، لا يباعون ولا يبتاع منهم ، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم ؟ أما إني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم ابن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ، ما أجابك إليه أبداً •

قال زهير : ويحك يا هشام ! فماذا أصنع ؟! إنكما أنا رجل واحد ، والله لو كان معي رجل آخر لقمتم في نقضها حتى انتقضها ، قال : قد وجدت رجلاً ، قال زهير : فمن هو ؟ قال هشام : أنا ، فقال زهير : أبغنا رجلاً ثالثاً • فذهب هشام إلى المطعم بن عدي ، فقال له : يا مطعم ، أقدر رضىت أن يهلك

(١) تاريخ الامم الاسلامية ، ج : ١ ، ص : ٧٨ ، وابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ١٧ ، والسيره الطيبة ، ج : ١ ، ص : ٢٧٣ ، والكامل في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٦١ - البداية والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ٩٥ •

بطنان من بني عبد مناف ، وأنت شاهد على ذلك ، موافق لقريش فيه ؟ أما والله
لئن أمكنتهموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعاً ، قال المطعم : ويحك ياهشام !
فماذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد ، والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها
قال هشام : قد وجدت ثانياً ، قال : من هو ؟ قال : أنا ، قال المطعم : ابغنا
ثالثاً ، قال : قد فعلت ، قال المطعم : من هو ؟ قال هشام : زهير بن أبي أمية ،
قال المطعم : ابغنا رابعاً .

فذهب هشام إلى البخثري بن هشام ، فقال له نحواً مما قال للمطعم بن عدي ،
فقال : وهل من أحد يعين على هذا ؟ قال : نعم ، قال : من هو ؟ قال : زهير بن
أبي أمية ، والمطعم بن عدي ، وأنا معك ، قال : ابغنا خامساً .

فذهب هشام إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد ، فكلّمه ، وذكر له
قرابتهم وحقهم ، فقال له : وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد ؟
قال : نعم ، ثم سمى له القوم .

فاتعدوا خَطَمَ الحجون^(١) ليلاً بأعلى مكة ، فاجتمعوا هنالك ، وأجمعوا
أمرهم ، وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها ، وقال زهير : أنا
أبدؤكم فأكون أول من يشكلكم ، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم ، وغدا زهير بن
أبي أمية عليه حُلَّةٌ ، فطاف بالبيت سبعةً ، ثم أقبل على الناس فقال : يا أهل مكة ،
أناكل الطعام ، ونلبس الثياب ، وبنو هاشم هلكت لا يباع ولا يبتاع منهم ، والله
لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

قال أبو جهل — وكان في ناحية المسجد — : كذبت والله لا تشق .

قال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب ، ما رضينا كتابتها حيث كتبت .

فقال أبو البخثري : صدق زمعة ، لا نرضى ما كتّيبَ فيها .

(١) موضع بأعلى مكة ، والخَطَمُ المقدمة .

وقال هشام بن عمرو نعوأ من ذلك .

فقال أبو جهل : هذا أمر قضي بليل ، تشوور فيه بغير هذا المكان .
وأبو طالب جالس في ناحية المسجد ، فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها ، فوجد
الأرضة^(١) قد أكلتها ، إلا باسمك اللهم .

ومما يذكر معجزة لرسول الله ﷺ ، أنه أعلم عمه أبا طالب قائلًا : يا عم ،
إن ربي الله قد سكت الأرضة على صحيفة قريش ، فلم تدع فيها اسمًا هو الله
إلا اثبتته فيها ، ونفت منه الظلم والقطيعة والبهتان . فقال أبو طالب : أربك
أخبرك بهذا ؟ قال ﷺ : نعم ، قال : فوالله ما يدخل عليك أحد . ثم خرج إلى
قريش ، فقال : يا معشر قريش ، إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا ، فهلم صحيفتكم ،
فإن كان كما قال ابن أخي فانتھوا عن قطيعتنا ، وانزلوا عما فيها ، وإن يكن كاذبًا
دفعت إليكم ابن أخي ، فقال القوم : رضينا ، فتعاقدوا على ذلك ، فقام المطعم
عندها فأحضرها ، ثم نظروا ، فإذا هي كما قال ﷺ ، فزادهم ذلك شراً ، فعند
ذلك صنع الرهط من قريش في نقض الصحيفة ما صنعوا .

وكانت قريش تهزأ بصحابة رسول الله ﷺ ، فإن رأوهم حول رسول الله
كعمار وأبي فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية ، وصهيب وأشباههم من المسلمين ،
قال بعض القرشيين لبعضهم : هؤلاء أصحابه كما ترون ، هؤلاء من الله عليهم
من بيننا بالهدى والحق !؟ لو كان ما جاء به محمد خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه ،
وما خصهم الله به دوننا .

وكفى الله نبيك أمر المستهزئين به ﷺ : « إنا كفيناك المستهزئين ، الذين
يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون^(٢) » .

فمنهم من عمي واستسقى بطنه فمات من اتفاخه ، كالأسود بن عبد يغوث ،

(١) الأرضة : حشرة تاكل الخشب .

(٢) سورة الحجر ، الآية الكريمة : ٩٥ و ٩٦ .

ومنهم من قتلته شوكة شاكته ، كالعاص بن وائل ، أو انتقض له جرح قديم فقتله كالوليد بن المغيرة ، فقد كان بأسفل رجله جرح بسيط انتقض به بعد استهزائه بالرسول الكريم ﷺ ، فقتله . ومنهم الحارث بن الطلائمة الذي امتلأ رأسه قيحاً فقتله .

وخرج المسلمون من شعب ابن أبي طالب لتبدأ مرحلة جديدة من الدعوة ، ألا وهي البحث عن نصير جديد لهذا الدين ، بعد أن أغلقت قريش قلبها دونه ، وأعرضت عنه .



أَسْئَلُهُ عَدِيدَةً تَطَّحُّ نَفْسُهَا عَمَّا سَبَقَ مِنْ أَحْدَاثَ

- ١ - لماذا هاجر الصحابة إلى الحبشة بالذات ؟
- ٢ - هل خاف النبي ﷺ على أصحابه من خطر الردة إذا بقوا في مكة ؟
- ٣ - أم ؟ هناك انقسام حاد في الرأي ضمن الطائفة الإسلامية الناشئة ، ففريق بزعامة أبي بكر الصديق ، وفريق بزعامة عثمان بن مظعون ، فهجر النبي ﷺ عثمان بن مظعون متحيزاً لأبي بكر وفريقه ؟
- ٤ - هل ذهبوا للتجارة هناك في الحبشة ؟
- ٥ - أم ؟ هل طلب النبي ﷺ مساعدة عسكرية من النجاشي ؟
- ٦ - ولماذا تأخر جعفر بالحبشة حتى السنة الثامنة للهجرة ؟
- ٧ - هل حقاً أن قريشاً وأبا جهل ... ما إن رأوا في محمد بن عبد الله النبوة والصلق في الدعوة ، حتى جاربوه هذه الحرب المرة القاسية ؟

١٠ - هاجر المسلمون إلى الحبشة ، ولم يكن من الممكن هجرتهم إلى إحدى القبائل العربية ، أو إلى موطن أهل الكتاب ، أو اليمن ، أو الحيرة ، للأسباب التالية :

فالقبايل العربية كانت ترفض دعوة رسول الله ﷺ ، إما مجاملة لقريش ، أو تمسكاً بدينها الوثني . ومواطن أهل الكتاب من يهود ونصارى ، لم تكن الهجرة ممكنة إليها ، لأن كلاً من الجاليتين اليهودية والنصرانية كانت تنازع الأخرى وتنافسها بالنفوذ الأدبي ببلاد العرب ، فهما والحالة هذه لا تقبلان منافساً ثالثاً ، لاسيما إذا كان من العرب الذين كانوا يحتقرونهم ويقولون فيهم : « ليس علينا في الذميين سبيل » .

أما اليمن . . فقد كانت مستعمرة فارسية ، ولم يكن الفرس يدينون بدين سماوي ، فلم يطمئن رسول الله ﷺ إلى الالتجاء إليهم ، وقد برهنت الأيام على بعد نظره ﷺ ، فقد قرر كسرى طلب النبي ﷺ ، بقصته المعروفة ، فصرف الله عز وجل بلاء كسرى بقتله بيد ابنه .

أما الحيرة . . فلها محاذيرها أيضاً ، فقريش لها صلات وثيقة معها ، ومصالح متبادلة ، وزيارات في مواسم منتظمة ، بالإضافة إلى نفوذ فارس عليها . فإذا علمت قريش بوجود المسلمين فيها ، طلبتهم ، كما حاولت مع النجاشي الذي رفض تسليمهم لتسامحه وقوة خلقه (١) .

لما سبق اختيار النبي ﷺ النجاشي بالذات ولم يختَر الحبشة الأرض ، بل اختار ملكها : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه » (٢) .

فاختيار الحبشة ، اختيار للملك لا يظلم عنده أحد .

(١) تاريخ الإسلام ، ج : ١ ، ص : ٨٧ .

(٢) الكامل في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٢٥ .

٢٢ — أما الخوف من خطر الردّة في مكة ، فأمر يرفضه الواقع • فقد رأينا موت ياسر وسمية في التعذيب ولم يرتدا ، ولا شك أن هذا ذروة التعذيب والاضطهاد ولكن لا ارتداد !!

كما تحمل بلال الحبشي العذاب الذي لا يطاق ولم يكفر برسول الله ﷺ ، ولم يرجع إلى عبادة اللات والعزى •

وفي كتب التاريخ وكتب السيرة فصول كاملة تذكر عذاب المستضعفين من المسلمين واضطهادهم ، وما ارتد منهم أحد • فالصحابه أرادوا — كما قال جعفر بن أبي طالب — : « يا رسول الله ! ائذن لي أن آتي أرضاً أعبد الله فيها ، لا أخاف أحداً ^(١) » •

وقد صلب خبيب بن عدي بن مالك الأنصاري وهو يتسم للموت ^(٢) ١٩ وركد عثمان بن مظعون حماية الوليد بن المغيرة ليُعذّب كما يُعذّب اخوانه في الدين ^(٣) ١٩ •

فكيف يرتد من يقبل الموت مبتسماً ، ويستعذب التعذيب ١٩

٢٣ — وانقسام الرأي بين أبي بكر الصديق وعثمان بن مظعون رضي الله عنهما ، رأي طرحه المستشرق « غايتاني » ^(٤) ، وهو رأي منقوض من أرومته لأمر عديدة ••

فليس من المعقول وجود صراع — مهما كان — والنبي ﷺ بين ظهرائهم ، فلا زعامة ولا طاعة إلا لرسول الله ﷺ •

وكيف تقبل وجود فكرة الزعامة بين المسلمين ، وقد عرض الباحثون صوراً

(١) حياة الصحابة ، ج : ١ ، ص : ٥١٥ •

(٢) أسد الغاية ، ج : ٢ ، ص : ١٢١ •

(٣) الكامل في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٥٣ ، والبداية والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ٩٢ •

(٤) راجع دراسات تاريخية باللغة الانكليزية ، للسنة الثالثة ، كلية الآداب — قسم التاريخ ، في جامعة دمشق سنة ١٩٦٣ — ١٩٦٤ ، صفحة : ١٢ — ٢٢ •

شتى من زهد المسلمين بمناصب الحكم والسلطة ، كما ظهر في سيرة الكثير منهم أنهم تنازلوا عنها إلى من هم أكفأ منهم ؟

ولمَّ لَمْ يظهر أثر لهذا الخلاف بعد وفاة النبي ﷺ بين الفريقين ؟ كيف انطفأ ؟ كيف خبا أواره ؟ كيف انتهى خلاف هو من القدرة أن اضطر على اثره أحد الفريقين إلى الهجرة ؟

هذا شيء .. وشيء آخر أهم يقطع على « غايتاني » — ومن ينشر فكره — تسأله .. ذلك أن أبا بكر نفسه خرج مهاجراً لولا أن رده ابن الدغنة !!

قالت السيدة عائشة^(١) : « فلما ابتلي المسلمون ، خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة ، حتى إذا بلغ بَرْكَ الْغِمَادِ^(٢) ، لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة^(٣) ، فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟ فقال أبو بكر : اخرجني قومي ، فأريد أن أسيح في الأرض ، وأعبد ربي . قال ابن الدغنة : فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج ، إنك تكسب المعدوم^(٤) ، وتصل الرحم ، وتحمل الكل^(٥) ، وتقري الضيف^(٦) ، وتعين على نوائب الحق^(٧) » فأتا لك جار ، ارجع واعبد ربك ببلدك ، فرجع وارتحل معه ابن الدغنة ، فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش ، فقال لهم : إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج ... وقالوا لابن الدغنة : مَرَّ أبا بكر فليعبد ربه في داره ، فليصل فيها وليقرأ ما شاء ، ولا يؤذينا بذلك ، ولا يستعلن به ، فأننا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا ... » .

(١) « حياة الصحابة » ، ج : ١ ، ص : ٤١٦/٤١٧ . والحديث باخراج البخاري ص : ٥٥٢ .

(٢) اسم موضع باليمن ، وقيل وراء مكة بخمس ليال .

(٣) قبيلة مشهورة من بني الهون .

(٤) أي تعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك .

(٥) الفقيل والعيال واليتيم ونحوه ..

(٦) أي تهني له طعامه ونزله لأكرامه .

(٧) وهي الحادثة والنازلة والمصيبة .

فأي خلاف بين أبي بكر وعثمان بن مظعون ، وقد شرع الأول باللاحق إلى حيث هاجر الثاني^(١) .

٤ - فهل ذهبوا للتجارة إذن ؟

لا . . فالحبشة لم تكن السوق التجاري لقريش ، وإنما كانت تجارتها إما إلى الشام وإما إلى اليمن ، فلو أرادوا تجارة لذهبوا إما إلى الشام وإما إلى اليمن . .

ولو ذهب المهاجرون من أجل تجارة في الحبشة ، فما الذي يضر قريشاً ؟ لماذا أرسلت رجلين منها لاستدعاء المهاجرين إن لم يكن العداء عداً فكر وعقيدة ؟!

٥ - أما الدعم العسكري فمرفوض أيضاً ، فلو أراد ﷺ دعماً عسكرياً لأرسل وفداً من اثنين أو ثلاثة ، ثم عادوا بما طلب سلباً أو إيجاباً . ولكن الهجرة شملت أسراً بأطفالها ونسائها ، ومكث الجميع هناك سنوات . فلو طُلب الدعم العسكري لتحديد الموقف في الأيام الأولى ، أو الأشهر الأولى بالرفض أو الإيجاب . ولسجل لنا التاريخ في محادثة جعفر بن أبي طالب والنجاشي لمحات من طلب معونة عسكرية ، وهذا ما لم يكن .

٦ - أما بقاء جعفر في الحبشة ، فهو سفير دولة الإسلام عند النجاشي ، لاسيما وأن النجاشي أسلم ، وسمح ببقاء جعفر ومن معه لنشر الدعوة .

ومثل بقاء جعفر بقاء العباس في مكة بعد إسلامه^(٢) .

٧ - وأخيراً . . عرفت قريش نبوة محمد . . فعقلية سكان الجزيرة العربية وما جاورها من بلاد الفرس والروم كانت مهينة لقبول ظهور نبي آخر الزمان ، حتى أن هرقل - كمثل - أمر صاحب مدينة إيلياء أن يستطلع رأيه في ظهور نبي آخر الزمان .

(١) البداية والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ٩٤ .

(٢) للتوسع في هذه الردود راجع : الإسلام في قفص الاتهام ، جلسة : قضية الهجرة إلى الحبشة ، الجلسة السابعة عشرة .

فلماذا اذن رفضت قريش نبوة محمد بن عبد الله ، وقد رأت من معجزاته
الكثير ؟

لقد عرفت قريش نبوة محمد ﷺ ، ولكنهم توقعوها في أمير زعيم ، ولم
يتوقعوها في يتيم أبي طالب . فحجبت عنهم لأنها لم تكن كما تهوى نفوسهم ،
وهذا يثبت قول أبي جهل أن لا شك عنده بنوة محمد ولكن النبوة في قبيلة
محمد شرف لا نقبله ، لسبق قبيلة محمد قبيلته بهذا الشرف العظيم .

وبعضهم يقرّ بنوة محمد لكنه يرفض شتم الأصنام والأوثان فقط .

وحتى أبو طالب عرفها ، وخاف أن يقولها واستيقنتها روحه .

لذلك أسلم الجميع في فتح مكة حين وقف ﷺ في قريش منادياً : « ماترون
أني فاعل بكم » ؟

قالت قريش كلها : « خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم »

فقال ﷺ : « اذهبوا فأنتم الطلقاء »^(١)

فأسلموا جميعاً .



(١) هذه أخلاق الأنبياء الكريمة ، أما قال يوسف عليه السلام لآخوته بعد أن حصص الحق :
« قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » ، يوسف / ٩٢ .

قبل الهجرة

✽ « كلمة واحدة تعطينيها تملكون بها
العرب ، وتدين لكم بها المعجم ، تقولون
لا إله إلا الله ، وتخلصون ما تعبسون من
دونه » .

« محمد رسول الله ﷺ »

الرَّسُولُ ﷺ فِي الظَّنِّ وَمَوْقِفُ ثَقِيفٍ مِنْهُ

مُزَتْقَتِ الصَّحِيفَةِ ، وَخَرَجَ بَنُو هَاشِمٍ مِنْ شُعْبِ أَبِي طَالِبٍ • وَيَشَاءُ اللَّهُ
مَسْجَانَهُ أَنْ تَكُونَ وَقَاةَ خَدِيجَةَ وَأَبُو طَالِبٍ فِي عَامٍ وَاحِدٍ (١) •

لَقَدْ كَانَتْ خَدِيجَةُ لَهُ وَزِيرَ صَدَقٍ فِي الْإِسْلَامِ ، يَشْكُو إِلَيْهَا ، وَيَسْتَمِدُّ مِنْ
تَشْجِيعِهَا مَا يَسْكُنُ بِهِ فُؤَادَهُ •

وَكَانَ عَمَّهُ أَبُو طَالِبٍ عَضْداً لَهُ وَحِرْزاً فِي أَمْرِهِ ، وَمَنْعَةً وَنَاصِراً عَلَى قَوْمِهِ •
فَلَمَّا هَلَكَ نَالَتْ قُرَيْشٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْأَذَى مَا لَمْ تَكُنْ تَطْلُعُ بِهِ فِي حَيَاةِ
أَبِي طَالِبٍ ، حَتَّى اعْتَرَضَهُ سَفِيهُ مِنْ سَفَهَاءِ قُرَيْشٍ فَنَثَرَ عَلَى رَأْسِهِ تَرَاباً ، فَدَخَلَ ﷺ
بَيْتَهُ وَالتَّرَابُ عَلَى رَأْسِهِ الشَّرِيفِ ، فَقَامَتْ إِلَيْهِ إِحْدَى بَنَاتِهِ ، فَجَعَلَتْ تَغْسِلُ عَنْهُ
التَّرَابَ وَهِيَ تَبْكِي ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لَهَا : « لَا تَبْكِي يَا بَنِيَّةَ ، فَإِنَّ اللَّهَ

(١) سَاءَ النَّبِيُّ ﷺ « عام الحزن » ، وهو العام العاشر من البعثة ، قبل الهجرة إلى المدينة
بثلاث سنوات •

مانع أباك » . وقال ﷺ : « ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب^(١) » .

ومما يذكر .. أنه لما اشتكى أبو طالب وبلغ قريشاً ثقله ، قالت قريش بعضها لبعض : إن حمزة وعمر قد أسلما ، وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها ، فانطلقوا بنا إلى أبي طالب ، فانطلق عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة ، وأبو جهل ابن هشام ، وأمّية بن خلف ، وأبو سفيان بن حرب .. في رجال من أشrafهم فقالوا : يا أبا طالب ، إنك منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى ، وتخوفنا عليك ، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك ، فادعه فخذ له منا ، وخذ لنا منه ليكف عنا ، ونكف عنه ، وليدعنا وديننا ، وندعه ودينه ، فبعث إليه أبو طالب فجاءه ﷺ ، فقال أبو طالب : يا ابن أخي ، هؤلاء أشraf قومك قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك ، فقال ﷺ : « نعم ، كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم » ، فقال أبو جهل : نعم وأبيك ، وعشر كلمات . قال ﷺ : « تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه » . فصفقوا بأيديهم . ثم قال : أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً ، إن أمرك لمعجب ! وقال بعضهم لبعض : إنه والله ما هذا الرجل بمعطيك شيئاً مما تريدون . فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه . ثم تفرقوا .. ومات أبو طالب فنالت قريش من النبي ﷺ ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب . فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف ، والمنعة بهم من قومه ، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل^(٢) .

خرج إليهم ﷺ ومعه زيد بن حارثة^(٣) ، وفي الطائف عهد إلى نفر من ثقيف ،

(١) ألوفاً بأحوال المصطفى ، ج : ١ ، ص : ٢١٠ . وعيون الآثار ، ج : ٢ ، ص : ١٢٩ ، والكمال في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٦٣ ، والطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣٤٤ . والسيرة الحلبية ، ج : ١ ، ص : ٣٨٤ ، والبداية والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ١٣٥ .

(٢) ابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ٤٧/٤٦ .

(٣) لم يذكر ابن هشام في سيرته أن زيدا كان مع النبي ﷺ ، بل قال في ج : ٢ ، ص : ٤٨ : « فخرج إليهم وحده » ، بينما المراجع الأخرى تذكر أن زيدا كان مع النبي ﷺ ، كما سنرى بعد قليل ، والكمال في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٦٣ ، يذكر أن زيد بن حارثة كان مع النبي .

هم يومئذ ساداتها وأشرافها ، وهم إخوة ثلاثة : عبد ياليل بن عمرو بن عثمير ،
ومسعود بن عمرو بن عثمير ، وحبيب بن عمرو بن عثمير^(١) .

فجلس إليهم ﷺ ، فدعاهم إلى الله ، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته ،
والقيام معه على من خالفه من قومه ، فقال له أحدهم : هو يمرط^(٢) ثياب الكعبة
إن كان الله أرسلك ، وقال الآخر : ما وجد الله أحداً يرسله غيرك ! وقال الثالث :
والله لا أكلملك أبداً ، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول ، لآنت أعظم خطراً من
أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ، ما ينبغي لي أن أكلملك^(٣) .

فقام رسول الله ﷺ من عندهم وقد يئس من خير الطائف ، وقال لهم :
إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا غني ، وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه
فيذئروهم^(٤) ذلك عليه . فلم يفعلوا ، بل أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه
ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس . وصار زيد بن حارثة يقي بنفسه
رسول الله ﷺ من حجارة ثقيف ، وشج رأس زيد شجاً كبيراً^(٥) .

مَنْ تَابَ رَحْلَةَ الطَّائِفِ

الجات حجارة ثقيف النبي الكريم ﷺ إلى بستان لعبة وشيبة ابني ربيعة ،
وكانا فيه ، ورجع سفهاء قريش عنه ﷺ ، فعمد إلى ظل شجرة عنب ، فجلس
تحتها ، وابنا ربيعة ينظران إليه ، ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف ، فلما

(١) وكانت عند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح ، قال لها ﷺ بعد رده وصده : « ماذا لقينا
من أحباتك ؟ » .

(٢) يمرط : ينزع ويرمي به .

(٣) ابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ٤٨ .

(٤) فيذئروهم : فيثيرهم .

(٥) « عيون الأثر » ، ج : ٢ ، ص : ١٣٤ ، وفي « الوفا بأحوال المصطفى » ، ج : ١ ، ص : ٢١٢ :

« فقام بالطائف عشرة أيام لا يدع أحداً من أشرافهم إلا جاءه وكلمه . فلم يجيبوه وخافوا على أحوالهم ،
فقالوا : يا محمد أخرج من بلدنا والحق بمعابك من الأرض ، وأغروا به سفهاءهم ، فجعلوا يرجعونك
بالحجارة ، حتى أن رجله لتدميان ، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه ، حتى لقد شج في رأسه شجاجاً » .

اطمأن رسول الله ﷺ اتجه بقلبه وروحه إلى من يلقي هذا في سبيله ومن أجله ،
اتجه إلى الله سبحانه ليقول :

« اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتِّي وقِلَّةَ حيلتي ، وهواني على
الناس •

يا أرحم الراحمين ، أنت ربُّ المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟
إلى بعيد يتجهمني^(١) ، أو إلى عدوِّ ملكته أمري ، إن لم يكن بك عليَّ غضب
فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي •

أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات ، وصلّح عليه أمر الدنيا
والآخرة من أن تنزل بي غضبك ، أو تحلّ عليَّ سخطك ، لك العتبى حتى
ترضى ، لا حول ولا قوة إلا بك » •

فلما رآه ابنا ريبة « عتبة وشيبة » ، وما لقي من سفهاء قريش ، تحركت
له رحمهما^(٢) ، فدعّوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له عدّاس ، فقالا له ، خذ قطعاً
من هذا العنب فضعه في هذا الطبق ، ثم اذهب إلى ذلك الرجل ، فقل له يأكل
منه ، ففعل عدّاس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ ، ثم قال
له : كل • فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده قال : بسم الله ، ثم أكل • فنظر
عدّاس في وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد • فقال
له ﷺ : ومن أهل أي البلاد أنت يا عدّاس ، وما دينك ؟

قال عدّاس : نصراني ، وأنا رجل من أهل نينوى •

فقال ﷺ : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى •

فقال له عدّاس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟

(١) يتجهمني : يلقاني بالغلظة والوجه الكريه ، « الوفا بأحوال المصطفى » ج : ١ ، ص : ٢١٣ ،
والطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣٤٥ •
(٢) الرحم : الصلة والقرابة •

فقال ﷺ : ذاك أخي ، كان نبياً وأنا نبي (١) .

فأكبَّ عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه ، فقال ابنا ربعة أحدهما لصاحبه : أما غلامك فقد أفسده عليك ، فلما جاءهما عداس قالاه : ويلك يا عداس ، مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال : ياسيدي ما في الأرض شيء خير من هذا ، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي ، قالاه : ويحك يا عداس ، لا يصرفك عن دينك فإن دينك خير من دينه (٢) .

ولما انصرف النبي ﷺ من الطائف باتجاه مكة ، مرَّ به بعض أهل مكة ، فقال رسول الله ﷺ لأحدهم : هل أنت مبلغ عني رسالة أرسلك بها ؟ قال : نعم . قال : انت الأخنس بن شريق فقل له يقول لك محمد هل أنت مجيري حتى أبلغ رسالة ربي ؟ فأتاه ، فقال له ذلك ، فقال الأخنس : إن الحليف لا يجبر على الصريح فأتى النبي فأخبره ، فقال ﷺ : إيت سهيل بن عمرو فقل له إن محمداً يقول لك هل أنت مجيري حتى أبلغ رسالة ربي فأتاه فقال له ذلك فقال : إن بني عامر بن لؤي لا تجبر على بني كعب . فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره ، فقال : انت المظنم بن عدي ، فقل له : إن محمداً يقول لك : هل أنت مجيري حتى أبلغ رسالة ربي ؟

قال المظنم بن عدي : نعم فليدخل . فرجع إليه فأخبره . وأصبح المظنم بن عدي وقد لبس سلاحه هو وبنوه وبنو أخيه ، فدخل المسجد ، فلما رآه أبو جهل قال : أمجيره أم تابع ؟ قال : بل مجير ، قال : أجرتنا من أجرت ، فدخل رسول الله ﷺ ، فاتمى إلى الركن فاستلمه وصلى ركعتين ، وانصرف إلى بيته ، ومظنم وأولاده مطيفون به (٣) .

وبعد عام الحزن ، عام موت خديجة وأبي طالب ، وتجاه هذه الحالة المؤلمة

(١) ابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ٤٩/٤٨ . والطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣٤٦ . والتكامل في التاريخ ج : ٢ ، ص : ٦٤ ، والبداية والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ١٣٦ .
(٢) السيرة الحلبية ، ج : ١ ، ص : ٣٨٥ .
(٣) الوفا بأحوال المصطفى ، ج : ١ ، ص : ٢١٥ .

من الصدود والاعراض في مكة والطائف ، كانت معجزة الاسراء والمعراج . ولنا هنا في صدد الاثباتات العلمية لهذه المعجزة ، فنحن المسلمين يكفيننا وجودها في كتاب الله عز وجل لنؤمن بها ، ولكننا نقول : لكل نبي ورسول معجزاته التي تختلف من أحدهم إلى الآخر . وكلمة معجزة كافية ليفهم المرء أن الله سبحانه الذي خلق نواميس الكون ثابتة ضمن قوانين لا تتغير قادر على تغييرها والخروج عليها ، وإن هذا القول صحيح بالنسبة للإنسان ، فقوانين الكون يندرج الإنسان بكل امكانياته تحتها ، أما الله سبحانه ، فهو الذي خلق ، وهو القادر بلا ريب على كل تغيير ، فالذي أسرى برسول الله ﷺ هو الله عز وجل خالق السموات والأرض ، وليس انساناً مثله : « سبحانه الذي أسرى بعبد له ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير^(١) » . فالذي أسرى برسول الله ﷺ سميع عليم ، خالق عظيم ، قادر على كل شيء .

وأنكر الأوربيون المسيحيون إسرائ النبي ﷺ ، غير أنهم من ناحية أخرى يعترفون بعشرات المعجزات للأنبياء قبله ، وليس ذلك بمستغرب منهم ، إنما الغريب من ناحية ثانية أنهم يؤمنون بقيام المسيح وصعوده إلى السماء ، ففي آخر إنجيل مرقس : « ثم إن الرب بعدما كلمهم ، ارتفع الى السماء وجلس عن يمين الله » . وجاء في آخر انجيل لوقا : « وفيما هو — أي المسيح — يباركهم ، انفرد عنهم وأضعد الى السماء^(٢) » !!

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَى الْقَبَائِلِ

عاد النبي ﷺ إلى مكة ، وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه ، إلا قليلاً ممن آمن به من المستضعفين . فبدأ ﷺ يعرض نفسه على قبائل العرب

(١) الآيات الأولى من سورة الاسراء ، وهي مكة .

(٢) راجع : محمد رسول الله ﷺ ، لمحمد رضا ، صفحة : ١١٦/١١٧ .

في المواسم ، وفي موسم الحج بخاصة ، ويدعوهم إلى الله ، ويخبرهم أنه نبي مرسل ، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين لهم الله ما بعثه به (١) .

وكان ﷺ يقف على منازل القبائل من العرب ، فيقول : يا بني فلان ، إني رسول الله إليكم ، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بي ، وتصدقوا بي ، وتمنعوا بي ، حتى أبين عن الله ما بعثني به .

وكان خلف رسول الله ﷺ رجل أحول وضيء ، له غدירתان (٢) ، عليه حلة عدنية ، فإذا فرغ ﷺ من قوله ، وما دعا إليه القبائل العربية ، قال ذلك الرجل : يا بني فلان ، إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ، ولا تسمعوا منه . وكان هذا الرجل عمه أبو لهب (٣) .

وكان ممن دعاهم رسول الله ﷺ كندة فأبوا عليه ، وكلباً ، وبني حنيفة ، وبني عامر بن صعصعة ، وقال فراس بن عبد الله . . . بن صعصعة : والله لو أني

(١) راجع : عيون الآثار ، ج : ٢ ، ص : ١٩٢ ، والوفاء بأحوال المصطفى ج : ١ ، ص : ٢١٥ ، وتاريخ الأمم الإسلامية ، ج : ١ ، ص : ٨١ ، والسيرة الطيبة ، ج : ١ ، ص : ٣٣٣ ، والكامل في التاريخ ج : ٢ ، ص : ٦٦ ، والطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣٥٣ ، والبداية والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ١٢٨ .
(٢) الغديرة : الذوائب .

(٣) ابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ٥٠ ، واسم أبي لهب : عبد المزي بن عبد المطلب . سألت عائشة رسول الله ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ فقال ﷺ : لقد لقيت من قومك و المراد قريش - ومفعول لقيت محذوف تقديره لقد لقيت منهم ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يعجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم استفق إلا بقرن الثعالب ، أي لم أظن لنفسي وأنتبه لحالي وللوضع الذي أنا ذاهب إليه وفيه إلا وأنا عند قرن الثعالب لكثرة همي الذي كنت فيه ، فرفعت رأسي فإذا بسعابة قد أظلمتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال : إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، قال : فناداني ملك الجبال وسلم علي ، ثم قال : يا محمد ! إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال ، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك ، فما شئت ؟ أي فأمرني بما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، جبلا مكة أبو قبيس والجبل الذي يقابله ، فقال رسول الله ﷺ : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ، لا يشرك به شيئا . راجع صحيح مسلم ، كتاب الجهاد والسير / ١١١ .

أخذت هذا الفتى من قريش ، لاأكلت* به العرب ، ثم قال للنبي ﷺ : أرايت إن نحن بايعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على من خالفك ، أ يكون لنا الأمر من بعدك ؟ قال ﷺ : الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء ، فقال فراس : أفستهدف^(١) نحورنا للعرب دونك ، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا ، لا حاجة لنا بأمرك ، فأبوا عليه .

ففراس لم يرَ في رسول الله ﷺ نبوة ورسالة ، بل رأى زعامة مقبلة أرادها لقومه من بعده ﷺ .

والنبي ﷺ لا مداهنة في مواقفه كلها منذ البعثة الى وفاته ، فمن يسلم ، يسلم لله وحده ، لا لزعامة ولا لرئاسة ، وصدق النبي في الدعوة لا لبس فيه ، فالأمر لله وحده ، من يسلم يسلم لقناعة بشرع الله ، وبنبوة محمد بن عبد الله لا لدنيا يصيبها فيما بعد .

ولما عاد بنو عامر من مواسمهم ، حدثوا شيخاً لهم أدركته السنن حتى صار لا يقدر أن يوافي معهم المواسم ما حدث معهم قائلين : جاءنا فتى من قريش ، يزعم أنه نبي ، يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه ، ونخرج الى بلادنا التي نعيش عن قوة ونصير يدفع به ظلم الوثنية ومجابتها . فوضع الشيخ يديه على رأسه ثم قال : يا بني عامر ، هل لها من تلاف ، هل لذناباها من مطلب^(٢) ، والذي نفس (فلان) بيده ما تقولاها اسماعيلي^(٣) ، وإنها لحق ، فأين رأيكم كان عنكم !؟

وعرض النبي ﷺ نفسه لكل قادم الى مكة من العرب ، يتصدى له ويدعوه إلى الله عز وجل ، كسويد بن صامت ، أخي بني عمرو بن عوف ، وكان يسميه قومه : الكامل ، لجلده وشعره وشرفه ونسبه ، فتصدى له رسول الله ﷺ ،

(١) أي تجعلها هدفا . والهدف كل شيء مرتفع من بناء أو كتيب رمل أو جبل ، ومنه سمي الغرض هدفا . ومختار الصحاح ص : ٦٩٢ .

(٢) مثل يضرب لما فات ، وأصله من ذنابي الطائر إذا أغلت من حباله فطلبت الأخذ بذيابها .

(٣) من نسل اسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

فدعاه إلى الله وإلى الإسلام ، فقال سويد : فلعل الذي معك مثل الذي معي ، فقال ﷺ : وما الذي معك ؟ قال : صحيفة لقمان الحكيم . فقال له ﷺ : اعرضها علي ، فعرضها عليه ، فقال ﷺ : إن هذا الكلام حسن ، والذي معي أفضل من هذا ، قرآن أنزله الله تعالى علي ، وهو هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله القرآن العظيم ، ودعاه إلى الإسلام ، فقال سويد : إن هذا القول حسن ، ثم انصرف عنه ، فقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث أن قتله الخزرج ، ويقول بعض قومه : إنا لنراه قد قتل وهو مسلم .

وسمع رسول الله ﷺ بقدوم أبي الحيسر أنس بن رافع إلى مكة ، ومعه فتية من بني عبد الأشهل ، فيهم إياس بن معاذ ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج ، سمع بهم النبي فأتاهم فجلس إليهم^(١) ، فقال لهم : هل لكم في خير مما جئتم له ؟ فقالوا له وما ذلك ؟ قال ﷺ : أنا رسول الله بعثني إلى العباد ، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ، وأنزل علي الكتاب ، ثم ذكر لهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن الكريم . فقال إياس بن معاذ - وكان غلاماً حدثاً - : أي قوم ، هذا والله خير مما جئتم له ، فأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع ، حفنة من تراب البطحاء وضرب بها وجه إياس بن معاذ ، وقال : دعنا منك ، فلعمري لقد جئنا لغير هذا ، فصمت إياس ، وقام رسول الله ﷺ ، وانصرفوا إلى المدينة ، وكانت وقعة بعث بين الأوس والخزرج^(٢) .



مُلاحَظَات حَوْلَ مَا سَبَقَ

١ - عاد النبي ﷺ من الطائف إلى مكة المكرمة ، ودخلها تحت حماية

(١) ابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ٥٤ .

(٢) يوم بعث : آخر الحروب بين الأوس والخزرج ، راجع « أيام العرب في الجاهلية » ، صفحة : ٧٣ .

وجوار مشرك هو المطعم بن عدي ، بينما من تعاليم الإسلام ألا يستعين المسلم بالمشركون على المشركين • فكيف نوفق بين الموقفين ؟

دخل النبي ﷺ مستجيراً بالمطعم بن عدي ، في وقت لم تكن للإسلام فيه دولة تحميه ، فقد كانت الدعوة في مهدها ، فدخل النبي الكريم بحماية مشرك ، وبخاصة فإن قريشاً علمت برحلة الطائف وبموقف ثقيف السلبي المؤلم ، فزاد ذلك من تطاول قريش ، فأبو طالب مات ، وثقيف ردت النبي رداً سيئاً فدخل إلى مكة بحماية مشرك •

ولم ينسَ رسول الله ﷺ هذا الموقف للمطعم بن عدي ، فقال ﷺ بعد معركة بدر الكبرى وأسرى قريش بين يديه : « لو كان المطعم بن عدي حياً فكلمني في هؤلاء النتنى - يعني أسارى بدر - لأطلقتهم له (١) •

فالإسلام لا ينسى جميل كافر مشرك ، ولا ينسى له إحسانه •

ومجمل القول •• إن موقف النبي ﷺ في مكة موقف حماية في دور ضعف •• دور المستضعفين والاضطهاد والتعذيب •• فكانت حماية أبي طالب قبل رحلة الطائف وحماية المطعم بن عدي بعدها •

ولكن لما قامت للإسلام دولته بعد الهجرة ، وأصبحت له قوته الذاتية التي تمثلت في قلوب رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، لم يكن يستعين بالمشركون على المشركين ، لأنه انتقل الى دور القوة •

٢ - نسمع كثيراً في أيامنا هذه « بش العالم على باب الحاكم » •• مع أن الأحداث التي سبقت الهجرة ترفض أن يتخذ الانسان هذا الموقف في وقت أعرض فيه الناس عن الإسلام •

وهذا النبي ﷺ في دور الضعف والاضطهاد يعرض نفسه وهو سيد ولد

(١) الوفا في أحوال المصطفى ، ص : ٢١٥ •

آدم على زعماء قريش ، وأشراف ثقيف ، ورؤساء القبائل العربية ليكسب منهم مسلماً نصيراً للدعوة ، وهذه رحلة الطائف - التي دامت عشرة أيام ، وفي رواية شهراً كاملاً - ذهاباً وإياباً على الأقدام في رحلة شاقة وفي منطقة وعرة ، وتيجتها مسلم واحد فقط ، عبد خادم هو عذّاس .

فرحلة الطائف درس في الدعوة عظيم ، ففيها سعي ونصب ، وعرض حسن لطيف للإسلام ، وفيها صبر واحتساب ، وفيها تحمل الأذى والعذاب « حتى إن رجله لتدميان » ، وفيها الصدق والاخلاص لله : « إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي » ، وفيها خشية الله من التقصير في الدعوة على الرغم من الجهد والعمل الدؤوب مع التواضع الدائم لله عز وجل : « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات ، وصلاح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك ، أو تحل عليّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى لا حول ولا قوة إلا بك » .

عرض النبي ﷺ نفسه على زعماء القبائل كلهم .. ولكن لما تمكن الإسلام ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وأصبح إيمان في القلوب ، جاءه الزعماء والأمراء والوجهاء إلى طاعته عند قدميه الشريفين ..

فأعمال النبي ﷺ كلها كلمات تشاهد وتنظر وتقرأ للاتباع ، لا للتبرّك فحسب ، والإيمان الحق اتباع كامل لأمر الله ، وسنة نبيه ، لتصبح إرادة الداعي تبعاً لإرادة الله ، ورغبته تبعاً لرغائب رسول الله .

وحركة الداعي إن خالفت سنة النبي العظيم ، فلا تدل على حياة صحيحة مطلوبة ، وليست كل حركة تدل على حياة ، فتدحرج صخرة من علم يجرفها سيل ، لا تدل حركتها على حياة ، وحركة مروحة كهربائية بآلاف الدورات في الساعة لا تدل على حياة .. نحن بحاجة إلى حركة داعية فيها حياة محمدية المنهج والسلوك والاقتداء ، خالصة لوجه الله ، فهي عندئذ ستنتج لا محالة ، وستبدل

الجهل علماً وعرفاناً ، والموت حياة وعزة ، والفرقة وحدة ومحبة .. والبعد عن الله قرباً وعبودية .

وإن وجد الهادي الذي يتلمس خطاً رسول الله ﷺ في مراحل دعوته ، في سيرته من ألفتها إلى يائها ، وجدت معاني النصر ، وبذور الفوز والعزة في الأمة .

« العلماء ورثة الأنبياء » ، ماذا ورثوا مادام النبي ﷺ لم يورث درهماً ولا ديناراً ؟ لقد ورثوا عمل النبي ودعوته في المجتمع ..

فيمكننا أن نسمي رحلة الطائف : « درّس الداعية العملي » أو : « درس داعية صادق » أو : « درس صدق في الدعوة » ...



مَدَائِحُ النَّبِيِّ
بَيْعَةُ الْعُقْبَةِ الْأُولَى
بَيْعَةُ النِّسَاءِ

✽ « بايعنا رسول الله ﷺ على أن
لا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ،
ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتان نفتريه من
بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعضيه في معروف ... »

ولما أراد الله عز وجل إظهار دينه ، وإعزاز نبيه ﷺ ، خرج رسول الله في
الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار ، فعرض نفسه على القبائل ، فالداعي
عليه أن يكون حيث تدعوه الدعوة ، وهذا ما صنعه رسول الله ﷺ في كل موسم ،
فبينما هو عند العقبة (١) ، لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً ، فقال لهم
ﷺ : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج ، قال ﷺ : أمن موالي اليهود ؟
قالوا : نعم ، قال ﷺ : أفلا تجلسون وأكلكم ؟ قالوا : بلى ، فجلسوا معه ،
فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن .

لقد كان الخزرج أهل شرك ، وكان اليهود معهم في بلادهم أهل كتاب
وعلم ، فكان اليهود يقولون لأهل المدينة إذا كان بينهم شيء : إن نبياً مبعوث
الآن ، قد أظلم زمانه ، فنتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم (٢) .

(١) العقبة التي يبيع فيها النبي ﷺ بين منى ومكة ، تبعد عن مكة نحو ميلين ، عندها مسجد
ومنها ترمى جرة العقبة ، ومعجم البلدان ، ج : ٤ ، ص : ١٣٤ .
(٢) عيون الأثر ، ج : ٢ ، ص : ١٥٥ ، وابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ٥٤ . والكامل في التاريخ ،
ج : ٢ ، ص : ٦٧ ، والطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣٥٥ .

فلما كلمهم ﷺ أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله ، قال بعضهم لبعض : يا قوم تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدقوا ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا : « إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم ، فنُدعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك .

ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا . .
فلما قدموا المدينة إلى قومهم ، ذكروا لهم رسول الله ﷺ ، ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم ، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ .
يقول عبادة بن الصامت^(١) : « كنت فيمن حضر العقبة الأولى ، وكنا اثني عشر رجلاً^(٢) ، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء^(٣) ، وذلك قبل أن تفرض الحرب على أن :

- ١ - لا نشرك بالله شيئاً .
- ٢ - ولا نسرق .
- ٣ - ولا نزني .
- ٤ - ولا نقتل أولادنا .
- ٥ - ولا نأتي ببهتان نفترقه من بين أيدينا وأرجلنا .
- ٦ - ولا نعصيه في معروف .

(١) عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي ، أبو الوليد ، شهد العقبة الأولى والثانية ، وشهد بدرًا وأحداً والخندق ، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، كان ممن جمع القرآن في زمن النبي ، أرسله عمر مع معاذ بن جبل وأبي الدرداء ليعلموا القرآن بالشام ، ويفقهوهم في الدين ، فأقام عبادة بحمص . توفي وهو ابن اثنتين وسبعين سنة . (أسد الغابة ، ج : ٥ ، ص : ١٧٤)

(٢) أسماؤهم في « عيون الأثر » ج : ١ ، ص : ١١٥ .

(٣) سميت بيعة النساء لوجود عفرات بنت عبيد بن ثعلبة بها ، وهي أول امرأة بايعت ، أو سميت بذلك لأنها كانت على الأمور التي ورد ذكرها في سورة المتحنة خاصة ببيعة النساء وهي : « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبأينك على ألا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين بهتاناً يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم » .

فإن وفيتهم فلکم الجنة ، وإن غشيتهم من ذلك شيئاً فأمرکم الى الله عز وجل
إن شاء غفر وإن شاء عذب » .

عاد أصحاب بيعة العقبة الأولى إلى المدينة ، وأرسل رسول الله ﷺ معهم
معلماً يفقههم في الدين ، أرسل معهم مصعب بن عمير^(١) ، وأمره أن يقرئهم القرآن ،
ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم في الدين ، فكان يسمى المقرئ بالمدينة ، وكان منزله
على أسعد بن زرارة (أبي أمانة) ، كان يصلي بهم ، فجمع الأوس والخزرج
بنفسه دون تحرّج بينهما .



نظرات في بيعة العقبة الأولى

١ - نص البيعة موجز رائع ، شمل ما يلي :

- ١ - توحيد لله مطلق ، وهذا من حظ الروح والقلب : « لا نشرك بالله شيئاً » و :
- ٢ - « لا نسرق » ، أمانة وأمان ، وحفظ حقوق ولا اغتصاب ، وهذا من حق المجتمع والجماعة .
- ٣ - « ولا نزني » عفة وصيانة أعراض البعد عن الفاحشة ، وهذا من حق الجسد .

(١) الكامل في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٦٧ . والطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣٥٧ . والسيرة الحلبية : ج : ١ ، ص : ٢٣٦ . ومصعب بن عمير « أبو عبد الله » من السابقين إلى الإسلام ، شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ ، وشهد أحدًا ومعه لواء رسول الله ﷺ ، وقتل بإحدى شهيدًا وعمره أربعين سنة ، ويقال فيسه نزلت ولي أصحابه من المؤمنين : « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » . الأحزاب / ٢٣ . مات مصعب ولم يترك إلا ثوبًا كان إذا غطوا رأسه خرجت رجلاه ، وإذا غطوا به رجله خرج رأسه ، فقال ﷺ : « غطوا رأسه وأجلوا على رجله الا ذر » . « حشيش طيب الرائحة » ، وقال رسول الله ﷺ : « أيها الناس اتوبوا فزورهم وسلبوا عليهم فوالذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد الى يوم القيامة الا ردوا عليه السلام » .
- راجع « أسد الغابة » . ج : ٥ ، ص : ١٨١ .

٤ - « ولا تقتل أولادنا » ، وهذا حقّ الجيل الناشئ ، وحق البنة الأولى في المجتمع « الأسرة » .

٥ - « ولا تأتي بيهتان نفتره من بين أيدينا وأرجلنا » وهذا صدق اللسان ، وبالتالي صدق المعاملات وهذا الشرط قمع للكذب في المجتمع ، فالبهتان : القول على إنسان ما لم يفعله ، أو ما لم يكن فيه .

٦ - « ولا نعصيه في معروف » ، وهذا حظ القيادة ، الطاعة بمعروف ، والقيادة إذا ربطت الطاعة لها بأمرها بمعروف ، فما ذلك إلا لأنها واثقة بأنها لن تأمر إلا بمعروف .

٧ - « فإن وفيتهم فلكم الجنة » ، وهنا فكرة الجزاء والحساب والثواب . فتواب الطاعة والوفاء بهذه البنود سيكون الجنة .

٨ - أما الخيانة ، والنكث بما عاهدتم ، فشأنه الى الله عز وجل ، إن شاء غفر ، وإن شاء عذب . لم يذكر لهم ﷺ « جهنم والنار » فهذا ينفرهم ، بل ذكر الجنة للوفاء ، وترك أمر الخيانة لله .

هذا . . ولما عاهدوا النبي ﷺ على ترك الشرك والسرقة والزنى وقتل الأولاد ، وترك البهتان . . فهذا يدل على أن هذه الصفات كانت محبة إليهم في مجتمعهم فجاء الإسلام منقذاً مخلصاً .

٢ - أرسل النبي ﷺ مصعب بن عمير معلماً « وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الاسلام ، ويفقّهم في الدين » فالإسلام إذن ليس اتساباً واسماً ، بل تعلم والتزام فكري بعد دراسة .

وسمي مصعب بن عمير بالمدينة « المقرئ » ، وشتان بين مقرئ اليوم ، ومقرئ الأمس الذي رباه رسول الله ﷺ ، مقرئ اليوم : نعم وصوت جميل وغناء . . لذلك لا تتجاوز قراءته الأذن ، ومقرئ الأمس : تعليم ونور وإيمان وصفاء . .

٢٣ - النبي الكريم أسلم على يده بعض الناس ، والباقي على يد الصحابة ،
على يد أبي بكر وعثمان والزبير بن العوام .. فكلمة مسلم تعني داعية إلى الله ،
ومصعب بن عمير مثال الداعية أيضاً ..

خرج أسعد بن زرارة بمصعب بن عمير في المدينة يريد به دار بني عبد
الأشهل ودار بني ظفر .. وقال سعد بن معاذ لأسيد بن خضير : لا أبالك ، انطلق
إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا ، فازجرهما وأنهما عن
أن يأتيا دارينا ، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت كفتيك ذلك ،
هو ابن خالتي ، ولا أجد عليه مقدماً ، فأخذ أسيد بن خضير حربته ثم أقبل
إليهما ، فلما رآه أسعد بن زرارة ، قال لمصعب بن عمير : هذا سيد قومه قد جاءك ،
فاصدق الله فيه ، قال مصعب : إن يجلس أكلمه .

فوقف أسيد عليهما متشتماً ، وقال : ما جاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا ؟
اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة ، فقال له مصعب ؟ أوتجلس فتسمع ، فإن
رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كف عنك ما تكره ؟ قال أسيد : أنصفت ، ثم ركز
حربته وجلس إليهما ، فكلمه مصعب بالإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، فقالا فيما
يذكر عنهما : والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشرافه وتسهله . ثم
قال أسيد : ما أحسن هذا الكلام وأجمله ! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا
في هذا الدين ؟ قالوا له : تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك ، ثم تصلي ، فقام فاغتسل
وطهر ثوبيه ، وتشهد شهادة الحق ، ثم قام فركع ركعتين ، ثم قال لهما : إن
ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكما الآن ،
سعد بن معاذ ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم ،
فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً ، قال : أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه
الذي ذهب به من عندكم ، فلما وقف على النادي قال له سعد : ما فعلت ؟ قال :
كلمت الرجلين ، فوالله ما رأيت بهما بأساً ، وقد نهيتهما ، فقالا : تفعل ما أحببت ،
وقد حدثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه ، وذلك أنهم

قد عرفوا أنه ابن خالتك ، ليخفروك « لينقضوا عهدك » ، فقام سعد مغضباً مبادراً ، تخوفاً للذي ذكر له من بني حارثة ، فأخذ الحربة من يديه ، ثم قال : والله ما أراك أغنيت شيئاً ، ثم خرج إليهما ، فلما رآهما سعد مطمئنين ، عرف سعد أن أسيدا إنما أراد منه أن يسمع منهما ، فوقف عليهما متشتماً ، ثم قال لأسعد بن زرارة : يا أبا أمامة ، أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني ، أتغشانا في دارينا بما نكره ، فقال له مصعب وقد أخبره أسعد بن زرارة : أي مصعب ، جاءك والله سيد من وراءه من قومه ، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان ، قال مصعب لسعد : أوتقعد فتسمع ، فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره ؟ قال سعد : أنصفت ثم ركز الحربة وجلس ، فعرض عليه الإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، قالوا : فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم ، لإشراقه وتسهله ، ثم قال لهما : كيف تصنعون إذا أتمم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين ، قالوا : تغتسل فتطهر ثوبيك ، ثم تشهد شهادة الحق ، ثم تصلي ركعتين ، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه ، وتشهد شهادة الحق ، ثم ركع ركعتين ، ثم أخذ حربته ، فأقبل عامداً الى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير .

فلما رآه قومه مقبلاً ، قالوا : نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم ، فلما وقف عليهم قال : يا بني عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمري فيكم ؟ قالوا : سيدنا وأفضلنا رأياً ، وأيمتنا نقيبة ، قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله ، فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة . ورجع أسعد ومصعب الى منزل أسعد بن زرارة فأقام عنده يدعو الناس الى الإسلام ، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون ، إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد ، وخطمة ووائل وواقف ، وهم من الأوس بن حارثة ، وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت ، وكان شاعراً لهم وقائداً يستمعون منه ويطيعونه ، فوقف بهم عن الإسلام . وهكذا .. حقق مصعب بن عمير الهدف الذي أرسله من أجله رسول الله ﷺ ، دعوة الى الله بحكمة ودأب .. فهيئاً الى بيعة العقبة الثانية .

البيعة الكبرى

بَيْعَةُ الْعُقْبَةِ الثَّانِيَّةِ

بَيْعَةُ الْحَنْزَبِ

✱ « أخطر بيعة في تاريخ الدعوة الإسلامية ، لقد فاجأت قريش بسلام المبادنة يفرض من يدها ، بعد أن بايع الانصار النبي ﷺ : « انا منكم وانتم مني ، احارب من حاربتهم ، واسلم من سالمتم » .

رجع مصعب بن عمير إلى مكة ، وخرج المسلمون معه الى الموسم ، مع حجاج قومهم من أهل الشرك ، فواعدوا رسول الله ﷺ العقبة ، من أواسط أيام التشريق ، وأذن الله سبحانه بالنصر لنبيه ، واعزاز الإسلام وأهله ، وإذلال الشرك وأهله .

فلما فرغ الحج ، قدموا إلى رسول الله ﷺ ، ومعهم أبو جابر عبد الله بن عمرو بن حرام ، وهو سيد شريف في قومه ، فأخذهم المسلمون معهم ، وكانوا يكتمون أمرهم أمامه ، فكلّموه وقالوا له : يا أبا جابر ، إنك سيد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا ، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون خطيباً للنار غداً ، ثم دعوه الى الإسلام وأخبروه بميعاد رسول الله ﷺ في العقبة ، فأسلم وشهد العقبة

وكان تقياً^(١) .

ولما مضى ثلث الليل خرج أهل المدينة من رحالهم لميعاد رسول الله ﷺ ، تسلكوا تسلل القطا مستخفين ، حتى اجتمعوا في الشعب عند العقبة ، وهم ثلاثة وسبعون رجلاً وأمرأتان هما : نسيبة بنت كعب (أم عمارة) ، وأسماء بنت عمرو بن عدي (أم منيع) .

وصل رسول الله ﷺ ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ، ويتوثق له .

ووصى النبي ﷺ أبا بكر أن يقف على فم الشعب من ناحية ، وأوصى علي بن أبي طالب أن يقف على فم الشعب من الناحية الأخرى .

تكلم العباس فقال : يا معشر الخزرج^(٢) ، إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ، ممن هو على مثل رأينا فيه (أي على الشرك) ، فهو في عز من قومه ، ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانصياع إليكم وللحقوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتهم إليه ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحمّلتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده ، فقال الأنصار : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم^٣ يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

فتكلم رسول الله ﷺ ، وتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب في الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم . فأخذ

(١) عيون الأثر ، ج : ٢ ، ص : ١٦٧ . وابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ٦١ . والتكامل في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٦٩ ، والطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣٦١ ، والبداية والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ١٥٨ .
(٢) العرب يسون الانصار كلهم الخزرج ، خزرجها وأوسها .

* ملاحظة : تستعمل كلمة « انصار » للدلالة على المسلمين في المدينة قبل الهجرة ، وكلمة « مهاجرين » للمسلمين في مكة قبل أن يهاجروا ، وكلمة « المدينة » ليشرب قبل وصول النبي ﷺ إليها ، وكلمة « مسجد » في مكة قبل الفتح . . . وذلك من قبيل « مجاز الاول » ، وقد ورد ذلك في القرآن الكريم في سورة يوسف ، الآية ٣٦ : « ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خبثاً ، أي يعصر عنباً سيؤول إلى خمر .

البراء بن معرور بيده ﷺ وقال : نعم والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه
أزراً^(١) . فبايعنا يا رسول الله فنحن أبناء الحروب ، وأهل الحلقة^(٢) ، ورثناها
كأبرأ عن كابر .

فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله ﷺ أبو الهيثم بن التيهان ، فقال :
يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالة ، وإنا قاطعوها — يعني اليهود —
فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟^(٣)
فتبسم رسول الله ﷺ ، فهو الوفاء ، وهو معلم الوفاء ، وهذا ما كان بعد فتح
مكة ، عاد إلى المدينة ليتم حياته ودعوته فيها . تبسم ﷺ ثم قال : بل الدم
الدم ، والهدم الهدم^(٤) ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتكم ، وأسالم من
سألتكم .

فقال العباس بن عباد : يا معشر الخزرج ، هل تدرون علام تبايعون هذا
الرجل ؟ إنه ينبه لخطر المهمة المقبلة وعظيم أمرها ، قالوا : نعم . قال : إنكم
تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت
أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلاً أسلمتموه ، فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم
خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما وعدتموه إليه على
نهكة الأموال^(٥) ، وقتل الأشراف ، فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة ،
قالوا : فإننا نأخذ على مصيبة الأموال ، وقتل الأشراف ، فما لنا بذلك يا رسول
الله إن نحن وفينا ؟ قال ﷺ : الجنة ، قالوا : أبسط يدك ، فبسط يده فبايعوه^(٥) .

(١) العرب تكني عن المرأة بالآزار ، وتكني أيضاً بالآزار عن النفس ، وتجعل التوب عبارة عن لابسها ،
أي تمنع أزراً يحتمل الوجهين معا .

(٢) الحلقة : الدروع .

(٣) يعني الحرمة ، أي ذمتي ذمتكم ، وحرمتي حرمتكم .

(٤) نهكة الأموال : نقصها .

(٥) راجع : الكامل في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٦٩ وما بعدها ، والطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣٦٢ ،
والسيرة الحلبية ، ج : ١ ، ص : ٣٤٢ . وابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ٦٦ ، والبداية والنهاية ، ج :
٣ ، ص : ١٦٢ .

قال العباس بن عباد هذا ليشد العقد لرسول الله ﷺ في أعناقهم ويزيد تمسكهم بالتزامهم ، ويحمسهم على وفائهم بعهدهم الذي قطعوه على أنفسهم ، وهذا يؤيده موقف قريب قادم لابن عباد .

وكان من أول من بايع وضرب على يد رسول الله ﷺ أسعد بن زرارة وأبو الهيثم بن التيهان والبراء بن معرور . ثم تتابع الناس . ونظم النبي الكريم الجماعة الإسلامية الأولى ، وخلع عنها الفوضى ، فقال : أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً ، ليكونوا على قومهم بما فيهم ، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس^(١) . وقال ﷺ للنقباء : أتمم على قومكم بما فيهم كفلاء ، ككفالة الحوارين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي — يعني المسلمين — قالوا : نعم .

ثم أمرهم ﷺ أن يلتحقوا برحالهم ، فقال العباس بن عباد : والله الذي بعثك بالحق ، إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيا فانا ، فقال ﷺ : لم تؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم . فعادوا إلى مضاجعهم ، وناموا حتى أصبح . واستشمت قريش الخبر ، فغدت على رحال الأوس والخزرج ، فقال بعض القرشيين : يا معشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم . فقام مشركون من الأوس والخزرج يحلفون بالله ما كان من هذا بشيء ، وما علمناه . وهذه حقيقة لأن المسلمين من الأوس والخزرج تسللوا في ذهابهم وإيابهم دون أن يشعر بهم معظم قومهم^(٢) .

(١) تسعة من الخزرج : سعد بن عباد ، أسعد بن زرارة ، سعد بن الربيع ، المنذر بن عمرو ، عبد الله بن رواحة ، البراء بن معرور ، عبد الله بن عمرو بن حرام ، عباد بن الصامت ، رافع بن مالك ابن العجلان .

وثلاثة من الأوس : أسيد بن حضير ، سعد بن خيثمة ، أبو الهيثم بن التيهان ، أو بدلا عنه (رفاعه ابن عبد المنذر) .

(٢) ابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ٦٨ . والسيرة العنبرية ، ج : ١ ، ص : ٣٢٢ .

وأنت قريشُ الحارثُ بن هشام بن المغيرة وعبد الله بن أبيّ بن سلول، فقالوا: ما الخبر، فقال: ابن سلول إن هذا الأمر جسيم، ما كان قومي ليتفوتوا عليّ بمثل هذا، وما علمته كان، فانصرفوا.

ولما نفر الناس من منى دققوا في البحث فوجدوه قد كان، وخرجت قريش في طلب الأوس والخزرج، فأدركوا سعد بن عبادة، فأخذوه فربطوا يديه إلى عنقه بنسج رحله^(١)، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويجذبونه من شعره. يقول سعد بن عبادة: فوالله إني لفي أيديهم إذ طلع عليّ نفر من قريش، فيهم رجل وضيء أبيض شعشاع، حلو من الرجال، فقلت في نفسي إن يئس عند أحد من القوم خير، فعند هذا، فلما دنا مني دفع يده فلكمني لكمة شديدة، وكان هذا سهيل بن عمرو. فقلت في نفسي لا والله ما عندهم بعد هذا من خير، فوالله إني لفي أيديهم يسحبونني إذ رحم لي رجل ممن كان معهم، فقال: ويحك! أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد؟ قال سعد: بلى والله، لقد كنت أجير لجبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف تجارة، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم بيلادي، وللحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. قال: ويحك! فاهتف باسم الرجلين، واذكر ما بينك وبينهما، ففعلت، وخرج ذلك الرجل إليهما، فوجدهما في المسجد عند الكعبة، فقال لهما: إن رجلاً من الخزرج الآن يضرّب بالأبطح ويهتف بكما، ويذكر أن بينه وبينكما جواراً، قال: ومن هو؟ قال: سعد بن عبادة، قالوا: صدق والله، إن كان ليجير لنا تجارنا ويمنعهم أن يظلموا ببلده، فخطبنا سعداً من أيديهم، فانطلق.

قال ابن سعد في الطبقات: واثمرت الأنصار حين فقدوا سعد بن عبادة أن يكرشوا إليه، فإذا سعد قد طلع عليهم، فدخل القوم جميعاً إلى المدينة.

(١) الشراك الذي يشد به الرجل، وفي لسان العرب، ج: ٨، ص: ٣٥٢: النسج: سير يضفر على هيئة أئنة النعال، تشد بها الرجال، والجمع أنساع ونسوع ونسج...

فلما قدم الأوس والخزرج إلى المدينة أظهروا الإسلام بها ، وأصبح الجو مهياً لهجرة الصحابة ولهجرة رسول الله ﷺ .

* * *

نظرات في بيعة العقبة الثانية

١ - أدركت قريش خطر بيعة العقبة الثانية ، فهي الفيصل بين عهدين من عهود الدعوة الإسلامية ، عهد مكة حيث السيطرة الوثنية القرشية ، عهد ابتلاء واختبار وأذى المسلمين ، وبين عهد الدعوة في المدينة ، عهد القوة ، ورفع الظلم ، وانتشار الدعوة .

وقريش خير من يعلم ما عليه الأوس والخزرج من قوة وبأس ، فقد رأت خطورة هذا العهد الجديد ، وبخاصة فإن تجارتها إلى الشام ستكون مهددة في ذهابها وإيابها ، ولا سيما أن المسلمين المكين سيهاجرون جميعاً إلى المدينة ، فيزداد الإسلام في المدينة قوة إلى قوة الأوس والخزرج .

لقد كانت بيعة العقبة الثانية أخطر بيعة في تاريخ الإسلام ، فقد تطورت الأحداث بعدها تطوراً سريعاً وخطيراً لصالح الفئة المؤمنة المسلمة التي صبرت ، وأفلتت الأمر من قريش ، فلقد انفتحت أمام المسلمين أبواب جديدة لانتشار الدعوة بعد طول احتباسها في مكة ، فقرب الفرج ، وكبر الأمل ، وفر اليأس ، وستنقضي بذلك ثلاث عشرة سنة من التعذيب والاضطهاد ، وأيقن المستضعفون المعذبون بعد طول أذى وعظيم عذاب أن النصر قريب ، فتسابقوا إلى الهجرة^(١) . وفوجئت قريش بذهاب المبادرة يفر من يدها ، لتبدأ الدعوة التي احتبستها في شعاب مكة تجد طريقها إلى قلوب العرب ، بعد أن أصبح الموقف من جميع

(١) سورة من حياة الرسول ، صفحة : ١٢٨ بتصرف .

جوانبه بيد المسلمين . وتبع ذلك أن مهابة قريش وزعامتها بدأت تتلاشى ، فصدمت بيعة العقبة الثانية القرشيين ، وزلزلت الأرض من تحت أقدامهم ، وطاشت أحلامهم ، حتى لاحقت الأنصار كما مر معنا ، وألقت القبض على سعد ابن عباد ، لقد طلبت قريش الأنصار في كل طريق ، وفي كل وجه ، تريد نزع البيعة من أعناقهم ، ولكن هيهات هيهات .

٢ - في حديث رسول الله ﷺ روعة في تسلسل العرض ، فهو ﷺ لم يشترط في بيعة العقبة الثانية شيئاً في بداية حديثه ، بل تدرّج تدرّجاً رائعاً .

دعا إلى الله أولاً ، وفي حديث رسول الله ﷺ عذوبة عندما يتكلم عن حبيبه رب العالمين ، فمع نطقه نور إلهي يخرق حجب القلوب ، نور يملأ أرجاء النفس والروح ، يعرفها الله عز وجل أولاً ، فتصبح مهيئة إلى سماع مبادئ الإسلام ثانياً ، وبعد معرفة الله قلباً ، وأحكام ومبادئ الإسلام عقلاً ، أتى حديث رسول الله ﷺ لحماية الداعي ، الذي يبث الإيمان في القلوب والعقول ، فقبلوا أن يمنعوهم مما يمنعون نساءهم وأبناءهم كمرحلة ثالثة في حديثه المبارك الشريف .

ولما اطمأن ﷺ لقبول المرحلة الثالثة ، جاء قوله العلني الصريح : الدم الدم والهدم الهدم ، فعلمت الأوس والخزرج أبعاد ما أقدموا إليه ، فقالوا عندها : « فنحن والله أبناء الحرب ، وأهل الحلقة — أهل الدروع — ورثناها كابراً عن كابر » .

ما أروع حكمتك يا سيدي يا رسول الله ، وجزاك الله عز وجل خير ما جزى نبياً عن قومه ، آملين ونحن المؤمنين بك واطمأنت افتدتنا إلى هديك ونهجك أن نكون تحت لوائك يوم القيامة ، وهذا هو الشرف الأعظم ، وهذه هي التجارة التي لن تبور .

ما أروعك يا سيدي يا رسول الله .. وما أبدع أسلوبك .. فالكلمة الطيبة

الحكمة الجميلة تقرب القلوب وتستعبد لها ، والكلمة العشواء الفظة تخرب القلوب وتفسد أمة .

ومن هنا ننطلق إلى سؤال ضمن هذه الملاحظات :

— لِمَ كانت هذه الاستجابة الرائعة من الأنصار ؟

— لِمَ لاقت الدعوة قبولا كبيرا في المدينة ، وانتشرت انتشار النار في الهشيم ، فأسلم في المدينة خلال عامين تقريبا أكثر ممن أسلم في مكة خلال ثلاث عشرة سنة ١١ ؟

١ — إن الاختلاف الواضح في البيئة والمناخ بين مكة والمدينة تركا أثرا كبيرا واضحا أيضا على طبائع السكان في كلتا المدينتين ، فعُرف أهل مكة بالشدة والصلابة في طباعهم ، وبالقسوة والجفاف في معاملاتهم ، في حين عُرف أهل المدينة بلين الجانب ، ودماثة الخلق ، وحسن المعاملة^(١) .

٢ — كما كانت عقلية الأوس والخزرج في المدينة مهياة لظهور نبي آخر الزمان ، فلما رأوا رسول الله وسمعوا تعاليم الإسلام ، أدركوا مبلغ الشبه بينه وبين ما توعدهم به اليهود ، فبادروا إلى تصديقه ، حتى لا يسبقهم هؤلاء اليهود إلى اتباعه ، فيقتلوه قتل عاد وإرم ، لهذا لا نعجب إذا رأينا أهل يثرب أكثر تحمسا للإسلام .

٣ — ولعل حالة المجتمع في المدينة كانت تدعو إلى انتهاز مثل هذه الفرصة ، إذ وجد أهلها في هذا الدين ما يوحد كلمتهم ، ويجمع شملهم ، ويقضي على ما بينهم من تنازع وبغضاء ، كما وجدوا في شخصية الرسول ﷺ بغيتهم المنشودة ، إذ عرفوه رجلا من أكرم بيوتات قريش وساداتها . ثم هو ابن أمنة من بني النجار ، أحد بطون الخزرج ، ومع ذلك فهو نبي يستطيعون أن يطاولوا اليهود بما ينزل

(١) صور من حياة الرسول ، ص : ٢١٩ .

عليه من وحي ، فهو الذي يستطيع أن يجمع الأوس والخزرج تحت لوائه ، وكانوا أحوج الى ذلك بعد يوم بعاث الذي كان النصر فيه للأوس ، ولعل انهزام الخزرج يوم بعاث قد جعلهم أكثر استعداداً لقبول الدين الاسلامي ، حتى كانوا أسبق إليه من بني عمهم الأوس^(١) .

كما أدرك الطرفان - الأوس والخزرج - أن اليهود ينازعونهم سيادتهم في المدينة ، وعلى مرّ الأيام تشتد شوكتهم ، ولجؤوا إلى الحيلة للتفريق والوقية بينهما ، ومازالوا يشيعون بينهم أسباب العداوة ، حتى تم لهم ما أرادوا من ذلك ، وحل الخصام محل الوئام ، وحلّت البغضاء محل المودعة ، فقامت بينهما حروب طاحنة . وشعر الأوس والخزرج بعد يوم بعاث بسوء ما يصنع بعضهم ببعض ، وأدركوا أن الغالب والمغلوب منهما كليهما خاسر في هذه الخصومة ، وأن الكاسب فيها هم اليهود فقط ، وفكر العقلاء بتنصيب رجل من الخزرج ينضوون تحت لوائه جميعاً ، ولكن الله عز وجل أراد بهم خيراً مما أرادوا بأنفسهم ، فاخترهم واجتباهم وجعلهم أنصاراً لرسول الله ﷺ .

٣- يندب كثيرون من أنصاف المثقفين حظ المرأة في الإسلام ، ويتهمونه أنه عطلها وكبت طاقاتها ، وعزلها عن المجتمع وما يحيط بها من أحداث .. وماشابه من هذه الشرهات ..

والمطلع المنصف يلمس دور المرأة الرائع في الإسلام منذ اللحظة الأولى للبعثة .

أما كانت خديجة بنت خويلد وزير صدق لرسول الله ﷺ ، يشكو إليها ويستشيرها ويطمئن لرأيها ؟

وفي هجرة الحبشة الأولى والثانية أما كان نسوة يشاركن الرجال المهاجرين جهادهم ، ومنهن أسماء بنت عميس بن النعمان ، وفاطمة بنت صفوان بن أمية ،

(١) تاريخ الاسلام ، ج ١ : ص ٩٣/٩٤ .

وأمنية بنت خلف ، وحبيبة بنت أبي سفيان ، وبركة بنت يسار ، وأم حرملة بنت عبد الأسود بن جذيمة ، وربطة بنت الحارث ٠٠٠؟

وفي بيعة العقبة الأولى ، أو في بيعة « النساء » كما تسمى ، أما كانت عفراء بنت عبيد بن ثعلبة أول امرأة تباع رسول الله ﷺ ؟

وفي بيعة العقبة الثانية ، أو بيعة الحرب ، امرأتان بايعتا رسول الله ﷺ على الحرب والقتال لاعلاء كلمة الله عز وجل ، وهما : أم عمارة - نسيبة بنت كعب ، وأم منيع ، أسماء بنت عمرو ٠٠

وسنرى مشاركة المرأة في الهجرة ٠٠ كما رأينا مشاركتها في بدء الدعوة فقد كانت المرأة أول شهيد في الإسلام ألا وهي سمية رضي الله عنها ٠

ولن نقارن هنا حال المرأة قبل الإسلام وما حقق الإسلام لها ، فهذا قمنا به في كتابنا « الإسلام في قفص الاتهام » ، ولكننا نقول :

إن للمرأة صفحات مجيدة في تاريخ الإسلام ، ومنذ أيامه الأولى ، بل منذ ساعاته الأولى ٠٠ لقد أخذت المرأة دورها الطبيعي ومكاتها اللائقة بكل عفة وطهارة وإيمان ٠ فمن يندب حظها ، ويطالب بحقوقها ، إما جاهل وأما حاقد ٠ ونحن نرى أن لا حقوق لها ، ولا حقوق للرجل ، بل حقوق أسرة ترفرف عليها أجنحة السعادة والهناء ، أسرة يسكن فيها الرجل إلى المرأة ، وتسكن فيها المرأة إلى الرجل يخيم عليهما الخير والتفاهم والسعادة ، لتحلق هذه الأسرة بجناحين متوازنين متساويين ، يشكل الرجل أحدهما ، وتشكل المرأة الجناح الآخر ، والاثنان يسعيان معاً لبناء أطفالهما ، أبطال الغد الخيرين ٠



نزول الأمر بالفتال

✽ « اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا
وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين اخرجوا
من ديارهم بغير حق إلا ان يقولوا ربنا
الله » .

« قرآن كريم ،

بدأ إسلام النبي ﷺ من غار حراء ، فصار مع الله وبالله وشه ..
مكث في الغار لتهيئة قلبه وروحه ، اعتكف في الغار بين صخور وحجارة
لينقطع عن الخلق ، ويتجه إلى الخالق .
وبقاء المسلمين في مكة ثلاث عشرة سنة لم يكن ضياعاً ، بل كان فترة
تربية إيمانية روحية للمسلمين ، وكان غار حراء الصحابة خلالها وبعدها قلب
رسول الله ﷺ .

لقد كانت مكة مرحلة تهيئة قلبية ، واستعداد روحي للتسك بأهداف
المقيدة تمسكاً مثالياً ، ومن بعد الغار ، كان السهر والبذل والمطاء والتضحية
والدموع ، كان الجوع والعطش والتعذيب .. وأوذي النبي ﷺ ، والذين
آمنوا معه ، أودوا في أهلهم وكرامتهم وبدنهم وأوطانهم .. وفي النهاية : « ولقد

سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون^(١) » ، فكلمة « منصورون » لا تكون إلا بعد معركة ، إذن لا بد من معركة ، وقد تهيأ رجالها وسلاحها ومكانها وزمانها .

والناظر في السور التي نزلت على قلب المصطفى ﷺ قبل الهجرة - الآيات المكية - يجدها تركّز على التوحيد ورفض الأوثان والأصنام بطريق المنطق والمحاكمة العقلية ، ويجدها آيات جزاء وقيامة ، وآيات عبادات^(٢) . وسور فيها قصص الأنبياء وتشمل :

١ - ارسال الأنبياء إلى أقوامهم في الشعوب السابقة .

٢ - معارك الأنبياء مع أقوامهم معركة حتمية بين الكفر والايمان ، بين الحق والباطل .

٣ - صبر الأنبياء ومن آمن معهم ، وتحملهم العذاب .

٤ - نصر الله لأنبيائه والمؤمنين به .

٥ - اصبر يا محمد صبرهم ، وأصمد صمودهم ، والعاقبة لك ولن آمن بك . وفي أواخر أيام النبي ﷺ نزلت آيات القتال .

ومن السور المكية ، سورة يونس ، وفيها : « بل كذبوا بما لم يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ » ، كذلك كذبَ الذينَ من قبلهم فانظر كيف كانَ عاقِبَةُ الظالمينَ » الآية : ٣٩ . ثم جاء في السورة : « واتلُ عليهم نبأ ثوحر . » ، « ثم بعثنا من بعده رُسُلًا إلى قومهم فجاءوهم بالبيناتِ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ، كذلك نطبع على قلوبِ المعتدين . » ثم بعثنا من بعدهم موسى

(١) من سورة الصافات (وهي مكية) ، الآية الكريمة : ١٧١/١٧٢ ، وتمة الآيات بعدها : « وإن جندنا لهم الغالبون ، فقول عنهم حتى نحين ، وأبصرهم فسوف يبيصرون . »
(٢) بينما السور المدنية سور تشريع بعد آيات الصبر والتحمل . فهي آيات دولة بكل أبعادها .

وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين » .. كلها آيات صبر وصدود .

وكذلك سورة البروج ، والكهف ، وإبراهيم ، ونوح ، وطه ، والأنبياء ، والقصص ، وق ، والنجم ، وفصلت ، والواقعة .. كلها سور إيمان وصبر وصدود وتحمل عذاب ، والعاقبة للتقوى .

ومما يذكر أن سورة يوسف مكية ، نزلت وظروف النبوة في مكة ظروف شاقة ، فالنبي ﷺ بمفرده ، ليس له أنصار ، وليس له أعوان ، وأهل مكة بكل طاقاتهم وزعاماتهم كانوا إلثماً وحرباً على رسول الله ﷺ .

سورة يوسف مكية نزلت في أوج اضطهاد النبي الكريم ، فهي دواء له ﷺ في ظروف الضغط والتشديد والخوف والرعب .. فهي تعليم بطريق القصة ، والتعليم بالقصة أرقى أنواع التعليم .

ابتلي يوسف عليه السلام وهو طفل ، بل نزل المعركة مع أخوته وهو طفل ، فتحمل الشدائد ، وتحمل إيذاء الأرحام ، الأخوة .. وهذا يشبه تماماً إيذاء النبي ﷺ من أرحامه وعشيرته من عمه أبي لهب وقريش .

ففي فوران المعركة ، نزلت سورة يوسف ، وفيها مكسر أخوته ، وابتلاء بامرأة العزيز حيث الجمال والمال والجاه ، فصمد يوسف بوجه ذلك بثبات ورجولة وعظمة وشجاعة وانتصر في المعركة مع النفس والشیطان ، فلا انهزام في أي معركة بعد ذلك من معارك الحياة .

انهم يوسف في دينه ، كما انهم في أخلاقه وسلوكه ، فصبر ، ورضي بالله عز وجل نصيراً ، وإذا عناية الله رافقته فلاخوف ولا حزن . فظاهر الأحداث محنة ليوسف ، ولكن لو لم يثلق في البئر ، ولم يثشر ، ولم يدخل السجن .. كما أن الرؤيا من الله ، والتأويل من عند الله .. لما صار عزيز مصر .. فالأساس الصدق والصبر ، والاخلاص في الجلوة والخلوة ، فيكون وراء المحن كل النعم .

فسورة يوسف عليه السلام ، والنبي ﷺ في أعنف المعارك ، والأعداء حوله بكل الأسلحة المادية والمعنوية ، نزلت السورة وفيها قصة نبي ، فيامحمد إن عذبتك قريش ، فيوسف عذبه إخوته ، فانظر النتيجة والنهاية ، انظر الى الكريم بن الكريم ابن الكريم يباع بيع العبيد ، فصبر ، فاصبر كصبره .

والنتيجة من (اقتلوا يوسف) ، ومن (شروه بثمن بخس) ، ومن (بلاء زليخا وبلاء السجن) .. إلى (آتت يوسف) ، يوسف الملك ، يوسف العزيز ، يوسف المجد « فد من الله علينا إنك من يكتري ويصبر فإنه لا يضيع أجر المحسنين » ، الذين أحسنوا في تقواهم وصبرهم في محنتهم .

فسورة يوسف — وهي مكية كما ذكرنا — سورة الشباب الصامد المؤمن ، كيف يصل إلى عز الطاعة ، وعز الصبر ، وعز الصمود ، وعز العفاف ، وعز العزيمة ...

لقد أغري يوسف بالمرأة ومعها المال والجاه ، وأغري رسول الله بالمرأة والمال والجاه ، عرضتها قريش عليه بوجود عمه أبي طالب ، فاصبر يا محمد كما صبر أخوك يوسف من قبل .

وفي آخر السورة : « حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يتركنا بأسنا عن القوم المجرمين ، لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » الآيات ١١٠/١١١ .

وقبيل بيعة العقبة الثانية ، وفي أواخر أيام النبي في مكة نزلت آيات القتال ، بعد آيات الصبر على الأذى ، والصفح عن الجاهل (١) .

(١) الآيات التي تخاطب النبي ﷺ بلزوم الصبر كثيرة ، منها : « واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين » ، يونس/١٠٩ و ١٠٠ فاصبر إن المآب للمتقين « هود/٤٩ » واصبر فإن =

وفي البيعة ، وفي طيات عهدها ، حملت الاذن بالحرب لايقاف ايذاء
الشرك وأهله .

لقد اضطهدت قريش من اتبع النبي حتى فتنوهم عن دينهم ، ونفوهم من
بلادهم ، فهم من بين مفتون في دينه ، ومن بين مُعَذِّب بأيديهم ، وبين هارب
في البلاد فراراً منهم ، منهم من بأرض الحبشة ، ومنهم من بالمدينة ،
وفي كل وجه .

فلما عنت قريش على الله عز وجل ، وردوا عليه ما أرادهم من الكرامة ،
وكذبوا نبيه ﷺ ، وعذبوا ونفوا من عبده ووكيله وصدق نبيه ،
واعتصم بدينه ، أذن الله عز وجل لرسوله ﷺ في القتال والانتصار ممن ظلمهم
وبغى عليهم ، فكانت أول آية أنزلت في إذنه في الحرب ، وإحلاله الدماء والقتال
لمن بغى عليهم ، قول الله تبارك وتعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن
الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا
الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات
ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوي عزيز ،
الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف
ونہوا عن المنكر ، والله عاقبة الأمور (١) » .

أي أن الله سبحانه أحل لهم القتال لأنهم ظلموا ، ولم يكن لهم ذنب فيما

=
الله لا يضيع أجر المحسنين ، ، هود/ ١١٥ . فاصبر على ما يقولون ٥٠ ، طه/ ١٣٠ ، فاصبر إن وعد الله
حق ولا يستخفك الذين لا يؤمنون ، ، الروم/ ٦٠ ، وفي سورة غافر « فاصبر إن وعد الله حق ، في الآيتين :
٧٦٥٥ . فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم ٥٠ ، الأحقاف/ ٣٥ . واصبر
لعلم ربك فإنك بأعيننا ٥٠ ، العاشر/ ٤٨ . فاصبر صبراً جميلاً ، المارج / ٥ ، ولربك فاصبر .
المدثر/ ٧ .

(١) سورة الحج ، الآية الكريمة : ٤٠ .

بينهم وبين الناس ، إلا أن يعبدوا الله ، وأنهم إذا ظهروا أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر .

ثم أنزل الله تبارك وتعالى : « وقاتلوا حتى لا تكون فتنة » ، أي حتى لا يفتن مؤمن عن دينه ، « ويكون الدين لله » أي حتى يعبد الله ، لا يعبد معه غيره .

وهكذا .. وبعد ثلاث عشرة سنة من العناء والصبر والابتلاء والاعتداء ، جاء وعد الله بالنصر ، وجاء إذنه بالقتال بعد طول صبر وتحمل وإذاء .. فكلّم تأخر النصر ثلاث عشرة سنة ؟

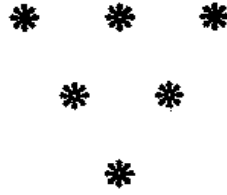
تأخّر لأن النصر السريع الذي لا يكلف عناء ، والذي يتنزل هيئتنا ليئاً على القاعدين المستريحين يعطل تلك الطاقات عن الظهور ، لأنه لا يحفرها ولا يدعوها (١) ..

وفوق ذلك فإن النصر السريع الهيئتنا سهل فقداه وضياعه ، أولاً لأنه رخيص الثمن لم تبذل فيه تضحيات عزيزة ، وثانياً لأن الذين نالوه لم تدرب قواهم على الاحتفاظ به ، ولم تشحذ طاقاتهم وتحشد لكسبه ، فهي لا تتحفز ولا تحتشد للدفاع عنه .

وهناك التربية الوجدانية والدربة العملية تلك التي تنشأ من النصر والهزيمة ، والكر والفر ، والقوة والضعف ، والتقدم والتقهقر ، ومن المشاعر المصاحبة لها .. من الأمل والألم ، ومن الفرح والغم ، ومن الاطمئنان والقلق ، ومن الشعور بالضعف والشعور بالقوة .. ومعهما التجمع والتنسيق بين الاتجاهات في ثنايا المعركة وقبلها وبعدها ، وكشف نقاط الضعف ونقط القوة ، وتدير الأمور في جميع الحالات ..

(١) جواب السؤال المطروح هنا من تفسير الآيات السابقة في الغلال لسيد قطب ، راجع ج : ٥ ، ص : ٦٠٣ وما بعدها .

من أجل هذا كله ، ومن أجل غيره مما يعلمه الله .. جعل الله دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم أنفسهم ، ولم يجعله لقية تهبط عليهم من السماء بلا عناء^(١) .



(١) الظلال ، ج : ٥ ، ص : ٦٠٤ « والاسلام مع هذا لا يعد القتال غاية لذاته ، ولا ياذن به إلا لغاية أكبر من المهادنة والمواذعة .. إن السلام هو غاية الاسلام ، ولكنه السلام الذي لا اعتداء فيه ولا ظلم ولا بني ولا عدوان ، أما حيث يقع البني والعدوان على أي مقوم من مقومات الانسانية الفاضلة كحرية المقيمة وحرية العبادة ... فالاسلام لا يرضى حينئذ بسلام يقوم على هذا العدوان ، فالسلام في الاسلام تحقق الخير والعدل على النهج الذي رسمه الله للعباد » .

« السلام العالمي والاسلامي » ، بتصرف .

المهاجرون إلى المدينة

✽ « إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً

وداراً تأمنون بها » •

• رسول الله ﷺ •

إن سير الأحداث التالية قرره سير الأحداث السابقة ••

أما وقد بايع الأنصار رسول الله ﷺ ، وأن يمنعوه في أرضهم في المدينة ، هو ومن اتبعه •• مما يمنعون منه نساءهم وأولادهم ، فقد أمر رسول الله ﷺ أصحابه في مكة بالخروج إلى المدينة ، والهجرة إليها ، واللتحق بإخوانهم من الأنصار ، وقال ﷺ : « إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها » ، فخرجوا جماعة وراء جماعة ، وأقام النبي ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن الله له بالخروج من مكة والهجرة إلى المدينة •

طلائع المهاجرين إلى المدينة

كان أول من هاجر إلى المدينة من المهاجرين أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد ابن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، قدم على رسول الله ﷺ من أرض الحبشة ، فأذته قريش ، وبلغه إسلام ممن أسلم من الأنصار ، فخرج إلى المدينة مهاجراً •

تقول أم سلمة « زوج النبي ﷺ بعد موت زوجها أبي سلمة ، واسمها هند بنت أبي أمية بن المغيرة » :

لما أجمع أبو سلمة الخروج الى المدينة ، رحل لي بعيره ، ثم حملني عليه ، وحمل معي ابنه سلمة في حجري ، ثم خرج بي يقود بعيره ، فلما رآته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، قاموا إليه ، فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرايت صاحبك هذه ؟ علام تتركك تسير بها في البلاد ؟! فنزعوا خطام البعير من يده ، فأخذوني منه ، وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة ، فقالوا : لا والله ، لا تترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا ، فتجاذبوا بني سلمة بينهم حتى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحسني بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجي أبو سلمة الى المدينة ، قالت أم سلمة : ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني •

هكذا أخذوا إسلامهم وإيمانهم بالآلام والعذاب والصبر والدموع ، ويناله الناس اليوم بالورثة ولا يكلفون أنفسهم جهداً بسيطاً ، ألا وهو جهد دراسته وتفهمه ١٩١

وتقول أم سلمة : فكنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح ، فما أزال أبكي حتى أمسي ، سنة أو قريباً منها ، حتى مرّ بي رجل من بني عمي أحد بني المغيرة ، فرأى ما بي فرحماني ، فقال لبني المغيرة : ألا تخرجون هذه المسكينة ، فترقم بينها وبين زوجها وبين ولدها (١) ؟

قالت : فقالوا لي : الحقّي بزوجك إن شئت ، ورد بنو عبد الأسد إليّ عند ذلك ابني ، فارتحلت على بعيري ، ثم أخذت ابني فوضعت في حجري ، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة ، وما معي أحد من خلق الله ••

فما أعظم الإيمان ، لقد بدل مخاوفها أمناً ، والشقاقَ عندها يسيراً ، والبعيدَ

(١) ابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ١٨١ •

قريباً ، وضعفها قوة وعزيمة ، وظلمة ليل الصحراء أمناً وطمأنينة .. وها هي تسير وحدها ، مهاجرة الى الله ، فارّةً بدينها ، حتى إذا كانت بالتنعيم^(١) لقيت عثمان ابن طلحة بن أبي طلحة .

تقول أم سلمة : فقال لي : إلى أين يا بنت أبي أمية ؟ فقلت : أريد زوجي بالمدينة ، قال : أو ما معك أحد ؟ قالت : لا والله إلا الله وبني هذا . قال : والله مالك من مترك ، فأخذ بخطام البعير فانطلق معي يهوي بي ، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه ، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ، ثم استأخر عني ، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري ، فَحَسَطَ عنه ، ثم قيده في الشجرة ، ثم تنحّى عني إلى شجرة فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرواح ، قام الى بعيري فقدمه فرحّله ، ثم استأخر عني ، وقال : اركبي ، فاذا ركبتي واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه حتى ينزل بي حتى أقدمني المدينة .

فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال عثمان بن طلحة لأم سلمة : زوجك في هذه القرية ، فادخليها على بركة الله ، ثم انصرف راجعاً الى مكة ، وكانت أم سلمة تقول : والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة ، وما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة .

مَلَاخَظَتَانِ

١ - لما خرجت أم سلمة كانت عازمة على أن تهاجر وحدها في الصحاري والجبال ، تحمل طفلها على بعيرها ، ولعلها قبل دخول الإيمان الى قلبها ، واحساسه بالله عز وجل ، كانت تخاف الانتقال من حي* إلى حي وحدها ، أما بعد

(١) التنعيم : موضع بمكة ، على فرسخين منها ، وسمي بذلك لأن جبلاً عن يمينه يقال له نعيم ، وآخر عن شماله يقال له ناعم ، والوادي نعيان ، وبالتنعيم مساجد حول مسجد عائشة ، ومنقايها على طريق المدينة ، منه يحرم المكيون بالعمرة .

- « معجم البلدان » ، ج : ٢ ، ص : ٤٩ .

إسلامها فهي مع الله قيوم السموات والأرض ، « أو ما معك أحد ؟ قالت : لا والله إلا الله وبني هذا » . لقد بدل الإسلام صفاتهم ومشاعرهم وحياتهم إلى الكمال ، وأوجد الإنسان الرباني الذي تتلاشى رغباته عند رغبات الله وأوامره .

٢٢ - عثمان بن طلحة مشرك ، ولكن النجدة والشهامة كانت في روح العربي منذ جاهليته ، فبذور الخير موجودة في قلوب الكثيرين ، ومثل عثمان بن طلحة سيقوده عقله إلى الإسلام ، ولقد أسلم عثمان بن طلحة قبل فتح مكة ، وكان له في تاريخ الإسلام شأن ، فقد أسلم في هدنة الحديبية ، وهاجر قبل الفتح مع خالد بن الوليد ، وقتل يوم أحد إخوته وأبوه وعمه ويده مفاتيح الكعبة ، دفعها رسول الله ﷺ عام الفتح إلى عثمان بن طلحة وإلى ابن عمه شيبة بن أبي عثمان . وقتل عثمان بن طلحة رحمه الله شهيداً في أول خلافة عمر بأجنادين .



وكان أول من قدم المدينة بعد أبي سلمة : عامر بن ربيعة وامراته ليلى بنت أبي حنسة ، ثم عبد الله بن جحش مع أهله وأخيه ، فأغلقت داره لهجرة أصحاب الدار كلهم ، فقال عتبة بن ربيعة : أصبحت دار بني جحش خلاء من أهلها ، فقال أبو جهل : هذا عمل محمد فرّق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وقطع بيننا .

وتتابع المهاجرون جماعات إلى المدينة ، ومنهم : عكاشة بن محصن ، وشجاع وعقبة ابنا وهب ، وأربد بن حميّرة ، وثقف بن عمرو ، وسخبرة بن عبيدة ، ومن النساء : زينب بنت جحش ، وأم حبيب بنت جحش ، وجذامة بنت جندل ، وأم قيس بنت محصن ، وأم حبيبة بنت ثمامة ، وآمنة بنت رقيش ، وسخبرة بنت تميم (١) .

ثم هاجر حمزة بن عبد المطلب ، وزيد بن حارثة ، وأبو مرثد كنان بن حصن ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وعتبة بن غزوان ، وعثمان بن عفان .

(١) ابن هشام ، ج ٢ ، ص ٨٣ .

هجرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

روى علي^١ رضي الله عنه : ما علمت أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً إلا عمر بن الخطاب ، فإنه لما هم^٢ بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه ، وانتضى في يديه أسهماً ، واختصر عنزته (وهي الحربة الصغيرة علقها في خاصرته) ، ومضى قبيل الكعبة والملا من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعا ، ثم أتى المقام فصلّى ركعتين ، ثم وقف على الحلق (المجالس ، مجالس القوم وحلقاتهم) واحدة واحدة ، فقال : شأنت الوجوه ! لا يثرع^٣م الله إلا هذه المعاطيس ! من أراد أن تشكله أمته ، أو يؤكّم ولده ، أو ترمك زوجته فليلحقني وراء هذا الوادي . قال علي^٤ : فما تبعه أحد ، ثم مضى لوجهه .

ولما عزم عمر على الهجرة أخبر عياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص ، واتفقوا على الصحبة على أن يجتمعوا في منازل بني غنكار على عشرة أميال من مكة ، فمن تخلف عن الموعد تركوه ورحلوا ، فجاء عمر وعياش وحبس هشام في مكة وفتن عن دينه ، فسارا حتى وصلا قباء ، فنزلا على رفاعة بن عبد المنذر ، ولبت عمر عنده حتى لحق به من أهله وقومه أخوه زيد بن الخطاب وعمرو وعبد الله ابنا شراقة ، وخنيس بن حذافة السهمي (وكان صهره على ابنته حفصة ، فخلف عليها رسول الله ﷺ بعده) وسعيد بن زيد بن عمرو بن ثفل ، وواقد بن عبد الله التيمي « حليف لهم » وآخرون ، ثم قدما المدينة .

عمر هاجر علناً ، وسيهاجر النبي سراً ، فهل عمر أجراً من النبي وأقوى ؟ عمر لم يكن مستهدفاً في ذاته ، أما النبي ﷺ فهو مستهدف لاستهداف الرسالة كلها في شخصه . وقريش ما جعلت سبعين شاباً لقتل عمر ، لأن قتل عمر

(١) راجع لهجرة عمر العلنية ، السيرة النبوية ، هامش السيرة الحلبية ، ج : ١ ، ص : ٣٤٠ .

قتل فرد من الجماعة المؤمنة المسلمة ، قريش تطلب النبي وتريد قتله لقتل وواد الرسالة ، ومحو الإسلام بمحو شخصه الكريم •

ويؤيد هذا معركة أحد ، لما قيل إن النبي قُتِل ، أوقف القرشيون الحرب ظناً منهم أنهم قضوا على الإسلام في أحد بقتل النبي • لذلك قال أبو سفيان : أَعْلُ هبل ، أَعْلُ هبل ، أي انتهى الإسلام ، وبقيت الوثنية دين قريش • وسؤال أبي سفيان لعمر بعد أحد : أقتلنا محمداً ؟ ! يُعَلِّمُ القاريء أن هم قريش شخص النبي ﷺ •

ويؤيد هذا أيضاً هجرة صهيب الرومي بعد وصول النبي ﷺ إلى المدينة المنورة ، قال له كفار قريش : أتيتنا صعلوكاً حقيراً ، فكسر مالك عندنا ، وبلغت الذي بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ؟ والله لا يكون ذلك ، فقال لهم صهيب : أرايتم إن جعلت لكم مالي ، أتخلثون سبيلي ؟ قالوا : نعم ، قال : فإني جعلت لكم مالي ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فقال : ربح صهيب ، ربح صهيب • وهكذا تركت قريش صهيماً^(١) يهاجر بعد مصادرة أمواله ، ولم تستهدفه في شخصه •

وخلاصة القول استهدفت قريش النبي بذاته الشريفة للقضاء على الرسالة في مهدها^(٢) ، بينما لا تطمس الرسالة بقتل سواء ، بل تبقى في سيرها الطبيعي • والله تبارك وتعالى ما قبض النبي إلا بعد أن استكملت الرسالة في كل أبعادها :

(١) أبو يحيى صهيب بن سنان بن مالك ، يقال له الرومي لأن الروم سبوه صغيراً ونشأ عندهم ، اشتراه عبد الله بن جدهان فاعتقه ، ولما أراد الهجرة تبعه المشركون ، فأخرج مافي كنانته من سهام ، وقال : يا معشر قريش ، تعلمون أنني من أرباكم ، والله لا تصلون إلي حتى أرميكم بكل سهم معي ، ثم أضربكم بسيفي ما بقي في يدي منه شيء ، فإن كنتم تريدون مالي دللتكم عليه ، قالوا : فدلنا على مالك ونخلي عنك ، فتعاهدوا على ذلك ، فدلهم عليه ، ولحق برسول الله ﷺ ، فقال رسول الله : ربح البيع أبا يحيى ، وأنزل الله عز وجل : « ومن الناس من يشتري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد » البقرة ٢٠٧/ ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، توفي بالمدينة ودفن فيها سنة ٣٨ هـ وهو ابن ثلاث وسبعين سنة ، « راجع أسد الغابة » ، ج : ٣ ، ص : ٣٧/٣٦ •

(٢) والنبي ﷺ مشرع ، وعمله تعليم لأمته من بعده ، فاستخدام العقل وتماطي الأسباب هو الأصل وهو عمل المشرع •

« اليومَ أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نِعَمَتِي ورضيتُ لكمُ
الإسلامَ ديناً » ، المائدة / ٤ •

وستكون أعمال قريش كلها أعمالاً طبيعية عادية في حياة من يدعو إلى الله ،
إنها كالظلال على صفحات المياه • فكما أن صورة الأشجار — مهما كانت ضخمة
عظيمة — على وجه الأنهار لا تمنع جريانها ، كذلك أعمال من يحاول زعزعة الحق
وهزيمته ، ولكن : « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل رلا تستعجل لهم ،
كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعةً من نهار بلاغٌ فهل يهلكُ
إلا القومُ الفاسِقون » الأحقاف / ٣٥ • « فاصبروا إن العاقبة للمتقين »
هود / ٤٩ •



هَجْرَةُ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

﴿إِلَّا تَتُوبُوا فَلْيَسْرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْفَسَادِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ، وَجَمَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝﴾

• التوبة / ٤٠ •

وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ، ينتظر أن يؤذن له في الهجرة ، ولم يتخلف أحد من المهاجرين إلا من حبس أو فتن ، إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق رضي الله عنهما ، وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة ، فيقول له ﷺ : لا تعجل ، لعل الله يجعل لك صاحباً ، فيطمع أبو بكر أن يكونه (١) .

وتنبهت قريش لخطر الموقف ، وأن زمامه قد أفلت من يدها حقاً وفعلاً ، لقد صار لرسول الله ﷺ شيعه وأصحاب من غير قريش ، وبغير بلد قريش ، إنهم هناك في يثرب ، ورأت قريش خروج المهاجرين إليها ، وعلمت أنهم قد نزلوا

(١) ابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ٨٩ . والطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣٦٩ ، والبداية والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ١٧٠ ، والطبقات الكبرى لابن سعد ، ج : ١ ، ص : ٢٢٧ .

داراً ، وأصابوا بالأنصار منعة ، وما اجتمع المهاجرون والأنصار إلا لحماية الدعوة ، وبناء الإسلام ولو كلفهم ذلك حياتهم . فأدركت قريش أنهم اجتمعوا لحربها ، وخروج النبي ﷺ إلى المدينة يعني اكتمال الأمر من قاعدته إلى قمة الهرم .
 ودليل ادراك قريش خطورة الموقف ، وأن زمامه قد أفلت من يدها تنادي
 أبنائها للاجتماع بدار الندوة ، للتداول والتشاور فيما يصنعون في أمر محمد بن
 عبد الله حين خافوه .

في دار الندوة: الانتقال من الأيذاء إلى الإفناء

وفي دار الندوة^(١) ، تمثل الشر في إبليس ، على شكل شيخ من أهل نجد ،
 اجتمع مع أشراف قريش . فمن بني عبد شمس : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة
 وأبو سفيان بن حرب ، ومن بني نوفل بن عبد مناف : طعيمة بن عدي ، وجبير بن
 مطعم ، والحارث بن عامر بن نوفل ، ومن بني عبد الدار بن قصي : النضر بن
 الحارث بن كلفة ، ومن بني أسد بن عبد العزى : أبو البخثري بن هشام ،
 وزمعة بن الأسود بن المطلب ، وحكيم بن حزام ، ومن بني مخزوم أبو جهل بن
 هشام ، ومن بني سهم : نبيه ومنبه ابنا الحجاج ، ومن بني جمح : أمية بن خلف
 .. وآخرون ممن لا يعد من قريش^(٢) .

لسم هذا الاجتماع على هذا المستوى من الأشراف والزعماء ٢١٩
 الجواب من تساؤلاتهم في دار الندوة : إن هذا الرجل قد كان من أمره ماقد
 رأيتم ، فإننا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا ، فأجمعوا
 فيه رأياً . إنهم يشعرون اليوم أن محمداً ﷺ أصبح قادراً على الوثوب عليهم ،
 إنه اليوم ندي قوي يحسب حسابه ، فثلاث عشرة سنة من الصبر والتكبير وتحمل

(١) وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها .

(٢) الطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣٧٠ ، والكامل في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٧١ . والسيرة النبوية ،

ج : ١ ، ص : ٣٥٤ ، وابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ٩٠ .

العذاب والاضطهاد والفتن ما ضاعت ، بل كانت بذوراً طيبة عميقة في النفوس المؤمنة ، أنبتت عندما آذن الله سبحانه ، قوة وعزيمة ، هي اليوم توازي قوة قريش ، بل باتت قريش تخشاها ، وقد كانت زعيمة العرب الأولى بلا منازع • وقالوا في دار الندوة : أجمعوا في محمد رأياً • فتشاوروا ، وقدّموا الحلول التالية :

١ - حبسه ﷺ في الحديد ، واغلاق الباب عليه حتى الموت • فالحل الأول سجنه ﷺ في سجن أحكم اغلاق بابه حتى الموت • ونقض هذا الحل الشيخ النجدي بقوله : لا والله ، ما هذا لكم برأي ، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتن دونه إلى أصحابه ، فلاوشكوا أن يشبوا عليكم ، فينزعوهم من أيديكم ، ثم يكاثروكم به ، حتى يغلبوكم على أمركم ، ما هذا لكم برأي ، فانظروا في غيره • وقبلوا منه استبعاد هذا الحل •

٢ - نفيه ﷺ من أرض قريش ، وإخراجه من بين أظهرهم « فإذا أخرجنا فوالله ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع ، إذا غاب عنا وفرغنا منه أصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت » •

فالحل الثاني نفيه ، وذلك بربطه على جمل وتسييره في الصحراء • ورد الرأي الثاني الشيخ النجدي أيضاً بقوله : لا والله ، ما هذا لكم برأي ، ألم تروا حسن حديثه ، وحلاوة منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به ، والله لو فعلتم ذلك ما أمتنم أن يحل على حي من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم حتى يطاكم بهم في بلادكم ، فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد • دبّروا فيه رأياً غير هذا • فكان الرأي الثالث من أبي جهل بن هشام •

٣ - قال أبو جهل : والله إن لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد • قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال : أرى أن تأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسبياً

وسيطاً فينا ، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يمددوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمى في القبائل جميعاً ، فلم يقدر بنو عبد مناف - قوم النبي ﷺ - على حرب قومهم جميعاً ، فرضوا منا بالعقل - بالدية - فعقلناه لهم •

قال الشيخ النجدي : القول ما قال الرجل ، هذا الرأي الذي لا أرى غيره • فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له • وسجل القرآن الكريم هذه الحادثة في الآية الكريمة :

«وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ^(١)» •

دبّرت قريش خطتها ، ورسمت طريقة أرادت تنفيذها ليلاً • • ولكن هيهات قلله تدبير فوق تدبيرهم ، ويدٌ فوق أيديهم • • ونزل جبريل الأمين بوحى من الله سبحانه يخبر النبي بما عملوا ويبتوا ، وأذن له بالهجرة • وقال : لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه •

وقدّر النبي ﷺ موقف قريش ، وأخذ يدبّر أمره بخطة سرية حرص ألا تتسرب إلى قريش ، وقدّر أن قريشاً سترصد أفواه الطرق ، وستبذل كل ما تستطيع من جهد إذا علمت بخروجه ، فإذا أعجزها العثور عليه ، وغلبت على أمرها واستسلمت لليأس حتى إذا استيقنت أنه قد فاتها إدراكه ، هدأت ثأرتها ، وكفت عن طلبه وتتبعه •

فلما كانت عتمة من الليل اجتمع من كل قبيلة شاب على باب بيت المصطفى ﷺ يرصدونه متى ينام ، ليثبوا عليه ﷺ ، فلما رأى مكانهم استعمل النبي الحكمة والعقل عندما خدع المتآمرين وأمر علياً كرم الله وجهه أن ينام على فراشه • قال ﷺ لعلي : « نَمْ عَلَى فِرَاشِي ، وَتَسْجِ بِرِدِّي هَذَا الْحَضْرَمِي

(١) سورة الانفال ، الآية الكريمة : ٣٠ •

الأخضر ، فتم فيه ، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم » ، وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذلك إذا نام^(١) .

كما أمر النبي علياً أن يرد ودائع وامانات الناس إليهم .

ونام علي كرم الله وجهه وهو مطمئن تماماً أن المشركين لن يصلوا إليه بسوء .
كيف يخاف وقد أخبره من لا ينطق عن الهوى بأنهم لن يسوءه بمكروه ١٩؟ وكيف يخاف علي^٢ وقد طمأنه حبيبه ؟

نام علي^٣ في فراش رسول الله ﷺ مطمئناً غير وجل ، فالنبي استشف المستقبل بإذن الله وأخبره بما سيكون بأنهم لن يخلصوا إليه . ونقول هنا : كثيراً ما تنبأ النبي بأشياء آتية مقبلة ، وتكون كما أخبر بها ﷺ . فلو لم يكن نبياً مرسلًا حقاً وصدقاً لما أقحم نفسه الشريفة بمثل هذه المواقف . فنبوءة واحدة يقولها ﷺ ويأتي الزمن بخلافها كافية لتشكيك المؤمنين والناس أجمعين بالنبوة كلها والوحي والرسالة من أسسها . ولكنه المصطفى - ﷺ - أتى الزمان بـعُدِّ أم^٤ قرب ليثبت ما تنبأ به كما وصف ، وكما أخبر ، مثل إخباره بموت كسرى يوم اغتياله بالذات ، وكإخباره بفتح مدائن كسرى والقصور البيض في الشام ، وإخباره ووصفه بيت المقدس وقوافل قريش عند الأسراء ، وإعلامه بفتح القسطنطينية ويدفن رجل صالح عند أسوارها وكان أبو أيوب الأنصاري ذلك الرجل الصالح .. والأمثلة كثيرة في كتب السيرة والحديث .

فعلي مطمئن ، والنبي من باب أولى في طمأنينة تامة ، إنه في أوج الأمن والأمان لأن الله معه ، يدبّر أمره ، ويعصمه من الناس . فلا اضطراب ولا وجل مما تكيده قريش .

اجتمع شباب قريش وفيهم أبو جهل بن هشام الذي قال وهم على باب بيت

(١) مروج الذهب ، ج : ٢ ، ص : ٢٨٥ ، والكمال في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٧٢ ، والطبري ، ج : ٢ ، ص : ٢٧٢ وابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ٩١ . والسيرة النبوية ، ج : ١ ، ص : ٣٥٦/٣٥٥ .

المصطفى ساخراً مستهزئاً وقد ظن أن الأمر بات بيده ، واليوم يقضي على محمد وبالتالي على الدعوة كلها ، قال أبو جهل : إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتوه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم جناناً كجنان الأردن ، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ، ثم بعثتم من بعد موتكم ، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها^(١) .

سمع النبي ﷺ قول أبي جهل ، فخرج عليه الصلاة والسلام وهو يتلو قوله تعالى : « يس ، والقرآن الحكيم ، إنك لمن المرسلين ، على صراط مستقيم ، تنزيل العزيز الرئيم لتنذِرَ قوماً ما أُنذِرَ آبائهم فهم غافلون ، لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون ، إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ، وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون » .

وقال ﷺ لأبي جهل رداً على قوله واستهزائه وسخريته : « أنا أقول ذلك ، أنت أحدهم » . وأخذ الله عز وجل على أبصارهم عنه ﷺ ، فلا يرونه ، وألقى الله عليهم جندياً من جنوده اسمه النوم « ولا يعلم جنود ربك إلا هو » جعلهم في سلاسل لا يستطيعون الحراك ، ومنعهم الابصار ، وأعماهم بدون عى ، ومنع عنهم السمع من غير صمم .

وخرج رسول الله ﷺ بكل عزة وافتخار واعتزاز بالله ، وبمتهى الطمأنينة بالله ، وجعل ينثر التراب على رؤوسهم — وهو يتلو الآيات الأولى من سورة يس — فلم يبق منهم رجل إلا ووضع النبي ﷺ على رأسه تراباً ، ليعلموا وتعلم قريش معهم أموراً ثلاثة :

١ — لقد خرج النبي الكريم وهو في غاية الهدوء والأمن ، لم يفر منهم ، ولم يهرب مسرعاً ، بل تمهّل فهو مع حليف لا يغلب ، إنه مع الله تبارك وتعالى .

(١) قول أبي جهل في ص : ٣٥٦ من الجزء الأول في السيرة النبوية . وفي الطبري ، ج : ٢ ،

ص : ٣٦٩ .

٢ - حفنة التراب على الرؤوس مع كونها دليلاً عملياً حسياً على الهدوء النفسي عند رسول الله ، إلا أنها أيضاً تحقير لكفرهم وشركهم ، لقد عُنُفَت الرؤوس الوثنية المشركة ، فهذا ذل يقابله عز للنبي وكرامة ورفعة .

٣ - وهذا اثبات لقريش - وللعالم أجمع فيما بعد - أن الدعوة في حماية الله عز وجل ، رعاها في شخص المصطفى ﷺ ، وستكون لأصحابه الكرام جنات في الأردن والشام والعراق ، بل جنات بين المحيطين الأطلسي والهادي ، وسيصبحون أمراءها وملوكها ، وسيملكونها لينفقوها في سبيل الله .

وخرج النبي ﷺ إلى دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وقد أذن الله عز وجل له عند ذلك في الهجرة ، ليتخذها صاحباً في طريقه إلى معقل الإسلام الأول . وكان أبو بكر يطمع بأن يكون صاحب النبي في هجرته منذ أن استأذنه في الهجرة ، وقال له ﷺ : لا تمجل ، لعل الله يجد لك صاحباً . فابتاع راحلتين ، فاحتبسهما في داره ، يعلفهما إعداداً لذلك ، وهذا فهم من أبي بكر عميق ، لتلميح رسول الله له بالأمر .

وأتى فتيان قريش الذين في باب بيت رسول الله آتٍ ممن لم يكن معهم ، فقال : ما تنتظرون هاهنا ؟ قالوا : محمداً ، قال : خيبيكم الله ! قد والله خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً ، وانطلق لحاجته ، أفما ترون ما بكم ؟

لقد عرف الرجل خروج النبي من حال فتيان قريش ، فهم نيام ، وإنسان وضع على رؤوسهم التراب !! فوضع كل رجل منهم يده على رأسه ، فإذا عليه تراب ، ثم جعلوا يتطلعون فيرون علياً على الفراش متسجياً ببرد رسول الله ﷺ ، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا ، فقام علي كرم الله وجهه من الفراش ، فقالوا :

لقد كان صدقنا الذي حدثنا (١) .

إلى غارِ ثَوِيٍّ

هجرة النبي ﷺ إلى المدينة هجرة مؤكدة منذ بيعة العقبة الثانية ، فهي — نصاً وروحاً — تحمل معنى الهجرة ، فالأنصار سيحمون النبي ﷺ في ديارهم ، وليس لهم من الأمر شيء في مكة ، وقول العباس واضح جلي : « إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللاحق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون بما دَعَوْتُمُوهُ إليه وما نعوهُ ممن خالفه فأتتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مُسَلِّمُوهُ وخاذلوهُ بعد الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه » .

وهجرة الصحابة كلهم تقريباً قبل رسول الله ﷺ ، تعني أيضاً أنه سيُرهم أمامه ، وسيلحق بهم دون شك .

قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : كان لا يخطيء رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار ، إما بكرة ، وإما عشية ، حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه لرسول الله ﷺ في الهجرة ، والخروج من مكة من بين قومه ، أتانا رسول الله بالهجرة ، في ساعة كان لا يأتي فيها ، فلما رآه أبو بكر قال : ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة ، إلا لأمر حدث ، فلما دخل ، تأخر له أبو بكر عن سريريه ، فجلس رسول الله ﷺ وليس عند أبي بكر إلا أنا — تقول ذلك السيدة عائشة — وأختي أسماء بنت أبي بكر ، فقال رسول الله ﷺ أخرج عني مَنْ عندك ، فقال : يا رسول الله ! إنما هما ابنتاي ، وما ذاك ؟ فذاك أبي وأمي !

(١) سؤال قد يتبادر إلى الذهن : لماذا لم يقتحم رجال قريش دار النبي ﷺ منذ أول عتمة الليل ، وهم الذين جاؤوا لقتله . والاجابة : لقد هموا بالفعل بعمل هذا والولوج عليه ﷺ ، فاستمعهم الله عز وجل صياح امرأة من الدار . فقال بعضهم لبعض : والله إنها للسبّة في العرب أن يتحدث عنها أنا تسورنا الشيطان على بنات العم ، وهتكنا ستر حرمتنا . فأتوا عند الباب وحول الدار .

فقال : إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة • فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله • قال رسول الله ﷺ : الصحبة (١) •

الصحبة كلمة عظيمة فيها سر عظيم ، وصحبة الجسد ، صحبة جيدة فيها بركة وخير ، ولكن صحبة الروح إلى الروح هنا السر الأعظم ، إنها صحبة تلقى وتعلمكم ، وصحبة إيمان ، وصحبة نور وعروج • • صحبة أبي بكر للنبي الكريم صحبة تلميذ لمعلم ، وصحبة طالب لمطلوب • • فوقر في قلب الصديق نور وإيمان مالم يوزع على الخلق لوسعهم •

وتقول السيدة عائشة رضي الله عنها : فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ •

ثم قال أبو بكر رضي الله عنه : يا نبي الله ، إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتكما لهذا ، فاستأجرا عبد الله بن أرقط ، رجلاً من بني الدئل بن بكر ، وكانت أمه امرأة من بني سهم بن عمرو ، وكان مشركاً ، استأجراه ليدلهما على الطريق ، فدفعنا إليه راحلتيهما ، فكاتتا عنده يرعاهما لميعادهما (٢) •

وهكذا لم يعلم بخروج رسول الله ﷺ إلا رجلان وامرأتان ، علي وأبو بكر ، وعائشة وأسماء •

وأخبر النبي ﷺ علماً بالهجرة ، وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي الودائع عن رسول الله ، الودائع التي كانت عنده ﷺ للناس ، فليس أحد بمكة عنده شيء يخشى عليه ، إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته •

(١) الطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣٧٥ • والكامل في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٧٣ ، وابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ٩٣ ، والسيرة النبوية ، ج : ١ ، ص : ٣٥٨ • والوفاء بأحوال المصطفى ، ج : ١ ، ص : ٢٣٥ ، وعيون الأثر : ج : ٢ ، ص : ٨١ •
(٢) لأخبار الدليل عبد الله بن أرقط (أو أريقط) راجع : مروج الذهب ، ج : ٢ ، ص : ٨٥ ، والكامل في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٧٣ ، والطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣٧٦ • وابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ٩٤ • وضبط ابن سعد في طبقاته اسم الدليل : عبد الله بن أريقط ، ج : ١ ، ص : ٢٢٩ •

وتتساءل : هذه الودائع لمن وقد هاجر المسلمون كلهم من مكة إلى المدينة ؟
 إنها ودائع قريش حتماً ، فكيف تضعها عند النبي ﷺ وهي التي تصر على
 الشرك والأوثان ، ومحاربة الإسلام ، فكيف تضع ودائعها عند نبي الإسلام ؟!!
 إن عمر الدعوة ثلاث عشرة سنة ، وهي مدة التطاحن الفكري العميق
 والجذري . ومع ذلك بقيت قريش تضع ودائعها عند رسول الله ﷺ ، وهذا
 دليل على معرفة قريش أمانة رسول الله وخلق القويم ، وانها — أي الودائع —
 في حوزة مكيين من الأمانة بيد رسول الله . وكان من المفروض أن يسوق ذلك
 قريشاً لتصديق الرسالة ، ومحمد هو الأمين منذ أول شبابه . ولكنه عدم التوفيق
 في تحكيم العقل السليم لاستشفاف صدق الرسالة ، ولعلها المكابرة كما كانت
 عند أبي جهل ، فهو — وهو يموت في نهاية معركة بدر الكبرى — يعلم أن محمداً
 رسول الله ، ولكنه لا يقرّ لبني هاشم بنبوة ، وهذا خذلان ، فإن لم تك نبياً ،
 فكُن صديقاً ، كن صحابياً جليلاً !!

وخرج النبي ﷺ مع أبي بكر رضي الله عنه من خوخة^(١) لأبي بكر في ظهر
 بيته ، ثم عمداً إلى غار ثور^(٢) ، فدخله ، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسّح
 لهما ما يقول الناس فيهما في النهار ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم
 من خبر . وأمر عامر بن فهيرة موله ، أن يرعى غنمه نهاره ، ثم يريحا عليهما
 يأتيهما إذا أمسى الغار ، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما بالطعام إذا أمست
 بما يصلحهما .

دخل النبي وصاحبه إلى الغار ليلاً ، فدخل أبو بكر رضي الله عنه قبل
 رسول الله ﷺ يتلمّس الغار ، لينظر أفيه سبّح أو حيّة ، فهو بقي رسول الله

(١) الخوخة : الباب الصغير في البوابة الكبيرة ، يدخل الناس منه ويخرجون .

(٢) غار ثور في طريق المنحدر من مكة إلى اليمن على مسير ساعتين ، في جبل عال ذي قمتين ، وهو
 في مرتقى صعب وعمر شديد الانزلاق كثير المضائق والصخور ، يبذل الصاعد إليه جهده وقوته ويستعين
 بكل خبرته وحذقه حتى يصل إلى الغار عند القمة ، فيجده كهفاً ضيقاً لا تزيد مساحته على مترين ونصف
 المتر أيضاً تحت صخرة ضخمة تفشى جوفه ظلمة خفيفة . « صور من حياة الرسول » ، ص : ٢٤٠ .

بنفسه ، وما وصل الصديق إلى مرتبة الصديقية إلا بمحبة رسول الله . هذه المحبة التي أنبت إيماناً ونوراً وعشقا لله في قلب أبي بكر ، فهو وما يملك للإسلام ونبي الإسلام ، أما تبرع بكل ماله ؟ فسأله ﷺ : ماذا أبقيت يا أبا بكر لأهلك ؟ فقال : أبقيت لهم الله ورسوله .

ودخل الصديق إلى الغار ، فجعل يتلمس بيديه ، فكلما رأى جحراً شق جزءاً من ثوبه ثم ألقيه الجحر ، حتى فعل ذلك بثوبه أجمع ، فبقي جحر فوضع عقبه^(١) عليه . فأبو بكر يهمه سلامة النبي لتأمين سلامة الدعوة ، لذلك أثناء صعوده مع النبي إلى الغار ، جعل يمشي مرّة أمامه ، ومرّة عن يمينه ، ومرّة عن شماله .

فقال له رسول الله ﷺ : ما هذا يا أبا بكر ؟ ما أعرف هذا من فعلك . فقال : يا رسول الله أذكر الرصد^(٢) فأكون أمامك ، وأذكر الطلب فأكون خلفك ، ومن عن يمينك وعن يسارك ، لا آمن عليك .

قال أبو بكر : فمشى رسول الله ﷺ ليلته على أطراف أصابعه حتى حفت رجلاه ، فلما رآه أبو بكر أنها قد حفت حمله على كاهله وجعل يشتد به حتى أتى به الغار فأنزله . ثم قال : والذي بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله ، فإن كان فيه شيء نزل بي قبلك ، ففعل ولم ير شيئاً ، فحمله وأدخله .

وكان في الغار خرق فيه حيات وأفاع ، فخشي أبو بكر أن يخرج منهن شيء فيؤذي رسول الله ﷺ ، فألقه قدمه — كما مرّ معنا قبل قليل — فجعلن يضربنه ويلسعنه — الحيات والأفاعي — وجعلت دموعه تنحدر ، ورسول الله نائم في حجر أبي بكر ، فلم يتحرك أبو بكر لئلا يوقظ رسول الله . ولكن ألم السم

(١) العقب : المراد هنا مؤخر القدام ، ، (الصحيح : ٤٤٣ ، .

* ولما تلمس أبو بكر الغار دميت يده بحجر ، فنظر إليها وقال :

إن أنت إلا اصبع دميت وفي سبيل الله ما لاقيت .

راجع : البداية والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ١٨٠ ، .

(٢) الرصد : الرقباء والميون .

جعل دموعه تنحدر فسقطت الدموع على وجه المصطفى الشريف ، فاستيقظ ، وقال : مالك يا أبا بكر ؟ قال : لثدِغْتُ ، فذاك أبي وأمي • فقتل ﷺ مكان اللسع ، فذهب الألم والورم^(١) .

ولما أصبح رأى رسول الله ﷺ وضع أبي بكر ، فسأله عن ثوبه ، فأخبره بالذي صنع ، فرفع ﷺ يديه وقال : اللهم اجعل أبا بكر معي في درجتي يوم القيامة ، فأوحى الله تعالى إليه : قد استجبت لك^(٢) .

* * *

جُنُونُ قُرَيْشٍ

جُنَّ جنون قريش ، وطار صواب أبي جهل ومن معه ، وأحدقوا بعلي كرم الله وجهه يتجاذبون وينهرونه ويسألونه عن محمد ، أين ذهب ؟ وأين اختفى ؟ وعلي يجيب بهدوء : لا أدري ! أمرتموه بالخروج فخرج •

ثم ادخلوه كرم الله وجهه إلى المسجد فحبسوه هناك ، وحاولوا بكل وسيلة أن يعرفوا منه مكان النبي ﷺ ، وعبثاً حاولوا • فلما استيأسوا منه أطلقوه ، فقام بالأبطح ينادي : « من كان له عند رسول الله ﷺ وديعة فليأت تؤكده إليه أمأته » •

وذهب نفر من قريش على رأسهم أبو جهل بن هشام إلى بيت أبي بكر ، فهم يعلمون أنه لم يبق من المسلمين في مكة إلا علي وأبو بكر ، فعلي بين أيديهم ، فليسألوا عن أبي بكر •

(١) كتاب « السيرة النبوية » والآثار المحمدية ، هامش السيرة الحلبية ، الجزء الأول ، ص : ٣٦٥ •

(٢) الوفا في أحوال المصطفى ، ج : ١ ، ص : ٢٣٧ • وسيرة ابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ٩٣ ، يقول سيدنا عمر بن الخطاب عن هذه الليلة في الغار : « والله لليلة من أبي بكر ويوم خير من آل عمر » وفي رواية : « خير مما أعطي عمر وآل عمر » • وراجع حلية الأولياء ، ج : ١ ، ص : ٢٢ •

تقول أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما : لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه ، أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل بن هشام ، فوقفوا على باب أبي بكر ، فخرجت إليهم ، فقالوا : أين أبوك يا بنت أبي خبيثا ١٩١

فكان رد أسماء ردة المسلمة القوية العززة ، لا جواب الجبان الخائف المتمسكن في وجه الكفر والظلم ، قالت موجهة الجواب إلى أبي جهل : لا أدري والله يا أبي ١٩٢ فكان جواب أبي جهل جواب من لا جواب عنده ، جواب من أخرج بعودة الشتيمة إليه ، فقد رفع يده ، ولطم خد أسماء لطمة طرح منها قرطها (١) .

ولتصوّر حال قريش ، وخطورة الموقف ، يكفي القول إن مدينة بأسرها هي مكة ، أخذت تطارد وتبحث وتقاوم رجلا واحدا هو المصطفى ﷺ ، وقد أجمعت على قتله والخلاص منه بأية وسيلة كانت .

فاقتنفوا أثر الرسول الكريم ، وأخذوا معهم خبراء مختصين في فن القيافة ، في تتبع الأثر على الرمال ، حتى بلغوا الجبل ، ووصلوا باب غار ثور .

وصلوا باب الغار ، والنبي وصاحبه فيه ، النبي مطمئن برعاية الله ، يحوطه بعنايته ، وأن قريشا لن تنال منه منالا مهما دبّرت وكادت ، ومهما استعانت بما لها من الخبرة والقوة والمكانة ، فلما وصل فتيان قريش إلى الغار ، وسمع أبو بكر ديب أقدامهم إزاءه ، اشتد خوفه على حياة الرسول الأعظم ، حتى بكى ، وقال :

(١) ابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ٩٥ ، عيون الأثر ، ج : ٢ ، ص : ١٨٨ ، السيرة الحلبية ، ج : ١ ، ص : ٣٧٢ ، وتقول أسماء أيضا : لما خرج رسول الله ﷺ وخرج أبي معه ، احتمل أبي ماله كله ، خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف ، فدخل علينا جدي أبو قحافة وقد ذهب بصره ، فقال : والله إني لأراه قد فجكم بماله مع نفسه ، قالت أسماء : كلا يا أبت ! إنه قد ترك لنا خيرا كثيرا ، قالت : فاخذت أحجارا فوضعتها في كوة في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيه ، ثم وضعت عليها ثوبا ، ثم أخذت بيده ، فقلت : يا أبت ، ضع يدك على هذا المال ، فوضع يده عليه ، فقال : لا بأس إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفي هذا بلاغ لكم . ولا والله ما ترك لنا شيئا ، ولكنني أردت أن أسكن الشيخ بذلك .
• راجع : البداية والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ١٧٩ .

يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا^(١) ، فهدأ رسول الله من روع أبي بكر ، وقال له : لا تحزن إن الله معنا ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ وسجلت الآية الكريمة هذه الصورة أروع تسجيل :

« إِنْ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ^(٢) » .

انقطع الأثر ، ووقف القائف^(٣) حائراً تائهاً ليقول : وهنا انقطع الأثر ، ولا أدري أخذ يميناً أو شمالاً أم صعد الجبل .

* * *

مُجْزَاتُ ثَلَاثَ

١ — نبتت شجرة تسمى « الرأفة » ، مثل قامة الإنسان ، ولها خيطان وزهر أبيض كالريش لخفته وليته ، يشبه القطن ، فحجبت عن الغار أعين الكفار .
فوقع في نفس فتیان قریش ، لو دخل محمد من هنا لسقط زهر الشجرة الخفيف اللين .

٢ — وبعث الله سبحانه عنكبوتاً فنسجت^(٤) خيوطها في فم الغار ، فكانت تلك الخيوط الضعيفة الواهية أمتن من الأسلاك الشائكة بإذن الله ، لقد كانت الخيوط الواهية أقوى من القلاع والسدود بأمر الله ومشيتته عز وجل .

(١) وبإل أحد فتیان قریش قرب فم الغار في أصل شجرة ، وكاد رذاذ البول يصيب ظاهراً قدم أبي بكر ، السيرة الحلبية ج : ١ ، ص : ٣٦١ . ويقال إن القائف هو الذي بال . كما بال أمية بن خلف أيضاً كما سير بعد قليل .

(٢) سورة التوبة ، الآية الكريمة : ٤٠ .

(٣) القائف : الذي يعرف الآثار ، « مختار الصحاح » ص : ٥٥٦ .

(٤) المنكبوت : الغالب عليها التانيث ، وجسمها (عنكب) ، « مختار الصحاح » : ٤٤٨ .

وكان كلمات كتبت على الغار ، لا تراها عيون الرأس ، ولكنها تلمس من الواقع ، وتقرأ بعين البصيرة ، كتبتها خيطان العنكبوت على مدخل الغار ، وهي « ممنوع الدخول » ، وهيهات لقوة مهما بلغت أن تخرق هذا الأمر ، فمشيئة الله ألا يدخلوا ، فلن يدخلوا .

٣٠ - وأرسل الله حمامتين وحشيتين باضتا في مقدمة الغار .

قال أحد القرشيين : ادخلوا الغار .

فأجابه أمية بن خلف : وما أربكم - أي حاجتكم - إلى الغار ، إن فيه لعنكبوتاً من ميلاد محمد ، ثم جاء فبال ، فقال أبو بكر رضي الله عنه للنبي الكريم : إن هذا الرجل ليرانا ، وكان مواجهته ، فقال النبي ﷺ : كلا ، إن ثلاثة من الملائكة تسترنا (١) .

وقال القرشيون : لو دخل الغار لكسر البيض ونسج العنكبوت .

وجاء في بعض السير ، كما ذكر ذلك صاحب « السيرة النبوية » والآثار المحمدية (٢) ، أن أبا بكر رضي الله عنه لما قال للنبي : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لرآنا ، قال له النبي ﷺ : لو جاؤونا من ههنا - أي من فم الغار - لذهبنا من ههنا ، فنظر الصديق رضي الله عنه إلى الغار قد انفرج من الجانب الآخر ، وإذا البحر قد اتصل به وسفينة مشدودة إلى جانبه .

وهذا ليس بمنكر من حيث القدرة الإلهية العظيمة ، ولا بمستبعد بالنسبة لمعجزاته ﷺ (٣) ، فقد شق الله لموسى البحر بعضاً ، وهو الذي جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم ، وهو الذي أخرج ناقة صالح من الصخر ، وهو الذي جعل عيسى يتكلم في المهد ، وانزل عليه مائدة من السماء . . فالله الذي أكرم أنبياءه

(١) السيرة الحلبية ، هامشها ص : ٣٦١/٣٦٢ . وفي الجزء الأول .

(٢) هامش السيرة الحلبية ، ج : ١ ، ص : ٣٦٤ .

(٣) يقول صاحب « السيرة النبوية والآثار المحمدية » في ج : ١ ، ص : ٣٦٤ : « وإن كان الذي ذكره ما ذكر له إسناداً متصلاً ، لكن حسن الظن بالائمة يقتضي أنهم لا يذكرون مثل ذلك بتوقيف » .

السابقين بمعجزاتهم التي بهرت العقول ، مازال هو الله لا يتبدل ولا يتغير ، فهو قادر على تحقيق معجزة لرسوله الكريم بخرق الصخر وإخراجه مع صاحبه من الطرف الآخر للغار •

* * *

فِي غَارِ شَوْي

وبقي النبي ﷺ وأبو بكر في الغار ثلاث ليال ، وجعلت قريش في طلبه مائة ناقة لمن يردّه عليهم •

وكان عبد الله بن أبي بكر يقيم في قريش نهاره ، يسمع ما يأترون وما يقولون في شأن رسول الله وأبي بكر ، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر ، وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر يرعى في رعيان أهل مكة ، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر ، فأحلبا وذبحا ، فإذا عبد الله بن أبي بكر غدا من عندهما إلى مكة ، أتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم ، حتى يعنى عليه ، أي يمحو أثر أقدامه^(١) •

من يشكهم الإسلام بالتواكل وتعطيل العقل والانيان بالأسباب ، ومن يفهم من المسلمين أن التوكل تواكل ، فليُنظر في الحادثة السابقة • لعله يعلم أن كل خطوة في الإسلام خطوة مدروسة ، والعقل فيها غير معطل ، بل منتهى التفكير والتخطيط ، وها هو عبد الله بن أبي بكر يأتي ليلاً إلى الغار بأخبار قريش ، وعند عودته إلى مكة صباحاً تتبعه أرجل عشرات الخراف والنعاج ، لتمحو أثر نعليه • أليس هذا منتهى الحكمة والعقل ١٩٠٠ والتوكل في الإسلام ، فوق هذا كله ، اعتماد على الله سبحانه ، فهو مسبب الأسباب •

وبعد أن نُسِت قريش من وجود النبي ﷺ بمكة ، بعد جهد دائب ، وبحث

(١) لتقصي أخبار قريش راجع الطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣٧٦ •

دقيق ، وفلّ عزمها الاخفاق ، فكفّت عن البحث ، وأرسلت بعض فنيانها الى طريق المدينة ، وأذاعت في أهل السواحل أن من يأتيها بمحمد أسيراً أو قتيلاً فله مائة ناقة .

ولما انقضت الليالي الثلاث ، وسكن عنهما الناس ، بدأت رحلة رعاها الله إلى المدينة .

وجاء دليل الطريق عبد الله بن أرقط بالبعيرين ، وبيعير له ، وأتتهما أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما بسفرتهما — بطعامهما — ، ونسيت أن تجعل لها عصاماً — الحبل الذي يشدّ على فم المزادة — فلما ارتحلا ذهبت لتعلق الشفرة ، فإذا ليس لها عصام ، فحكت نطاقها^(١) ، فجعلته عصاماً ثم علقتها به ، فكان يقال لأسماء بنت أبي بكر « ذات النطاقين » لذلك^(٢) .

وقدّم أبو بكر لرسول الله ﷺ أفضل الراحلتين ، ثم قال : اركب فدائك أبي وأمي . فقال ﷺ : لا ، ولكن ما الثمن الذي ابتعتها به ؟ قال أبو بكر رضي الله عنه : كذا وكذا . قال ﷺ : قد أخذتها به ، قال أبو بكر : هي لك يا رسول الله ، فركبها ، وانطلقا ، ومعهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر وهو مسلم إسلامه حسن ، ليخدمهما في الطريق ، والدليل عبد الله بن أرقط وهو مشرك .

لماذا لم يقبل رسول الله ﷺ الناقة من أبي بكر إلا بثمنها ، علماً أن أبا بكر أنفق على رسول الله من ماله ما هو أكثر من هذا بكثير وقبل ، وقال ﷺ : ليس من أحد آمن عليّ في أهل ومال من أبي بكر ؟

قال أهل العلم في اجابتهم عن هذا السؤال قولاً جميلاً مقنعاً :

لم يقبل النبي ﷺ الناقة من أبي بكر في الهجرة ، لتكون هجرته ﷺ إلى

(١) النطاق : شقة من ملابس النساء ، ومختار الصحاح ، ص : ٦٦٦ .

(٢) الطبري ، ج : ٢ ، ص : ٣٧٩ ، والكمال في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٧٣ ، وابن هشام ،

ج : ٢ ، ص : ٩٤ والسيرة النبوية ، ج : ١ ، ص : ٣٦٠ .

المدينة بنفسه وماله ، رغبة منه عليه الصلاة والسلام في استكمال فضل الهجرة
والجهاد على أتم أحوالهما^(١) .

تساؤل آخر : الدليل عبد الله بن أرقط مشرك ، وهو يعلم أن قريشاً جعلت
مائة ناقة في رسول الله ، هو يعلم ذلك قطعاً لأنه مكث بين القرشيين ثلاثة أيام ،
وهي المدة التي بقي فيها رسول الله ﷺ مستخفياً في الغار ، فلماذا لم يخبر
الدليل ابن الأرقط قريشاً بمكان تواجد النبي ، ليكسب أضعاف أجره بأيسر
السبيل ، ليكسب مائة ناقة ؟!

لا بد من صداقة شخصية كانت بين أبي بكر وعبد الله بن أرقط ، منعه من
ذلك ، فإن لم نجد دليلاً صريحاً يدل على هذه الصداقة من خلال كتب السيرة
والتاريخ ، يمكن التأكيد على أن الخيانة سببة كبيرة عند العرب لا يرتضيها منهم
أحد ولو كان على وثنيته وشركه . ومكان النبي ﷺ وأبي بكر بالنسبة للدليل
أمانة ، ويكره العربي ويمقت الخيانة في طبعه .

وهذا يشبه إلى حد حماية بعض المشركين للنبي ﷺ ، فاستجارة النبي
بالمطعم بن عدي وهو مشرك وقبول المطعم ذلك ، ونزوله مع أولاده وأقربائه
بكامل سلاحهم إلى الكعبة لحماية النبي ، فيها صفة طيبة كانت في العربي منذ
جاهليته ، ألا وهي « النجدة » فلا يضام المستجير به .

الوداع

انطلق الراكب باسم الله ، وتحت رعاية الله ، حين أرخى الليل سدوله ، وكان
القمر هلالاً في مستهل ربيع الأول ، فلم يلبث أن اختفى بتعبد الغروب ، وحين

(١) ابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ٩٥ . والناقة التي اشتراها النبي ﷺ كانت تسمى « الجعاء »
وهي « المضيء » كما جاء بابن هشام ، ويذكر صاحب « صور من حياة الرسول » أن اسمها « الفصواء » ،
راجع صفحة : ٣٥٣ من الكتاب المذكور . وفي كذلك في البداية والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ١٨٨ ، وذكر
أن النبي ﷺ اشتراها بثلاثمائة درهم .

أخذ الركب وجهته الى المدينة نظر رسول الله ﷺ إلى مكة ، نظرة وداع حارة ، ثم قال ﷺ :

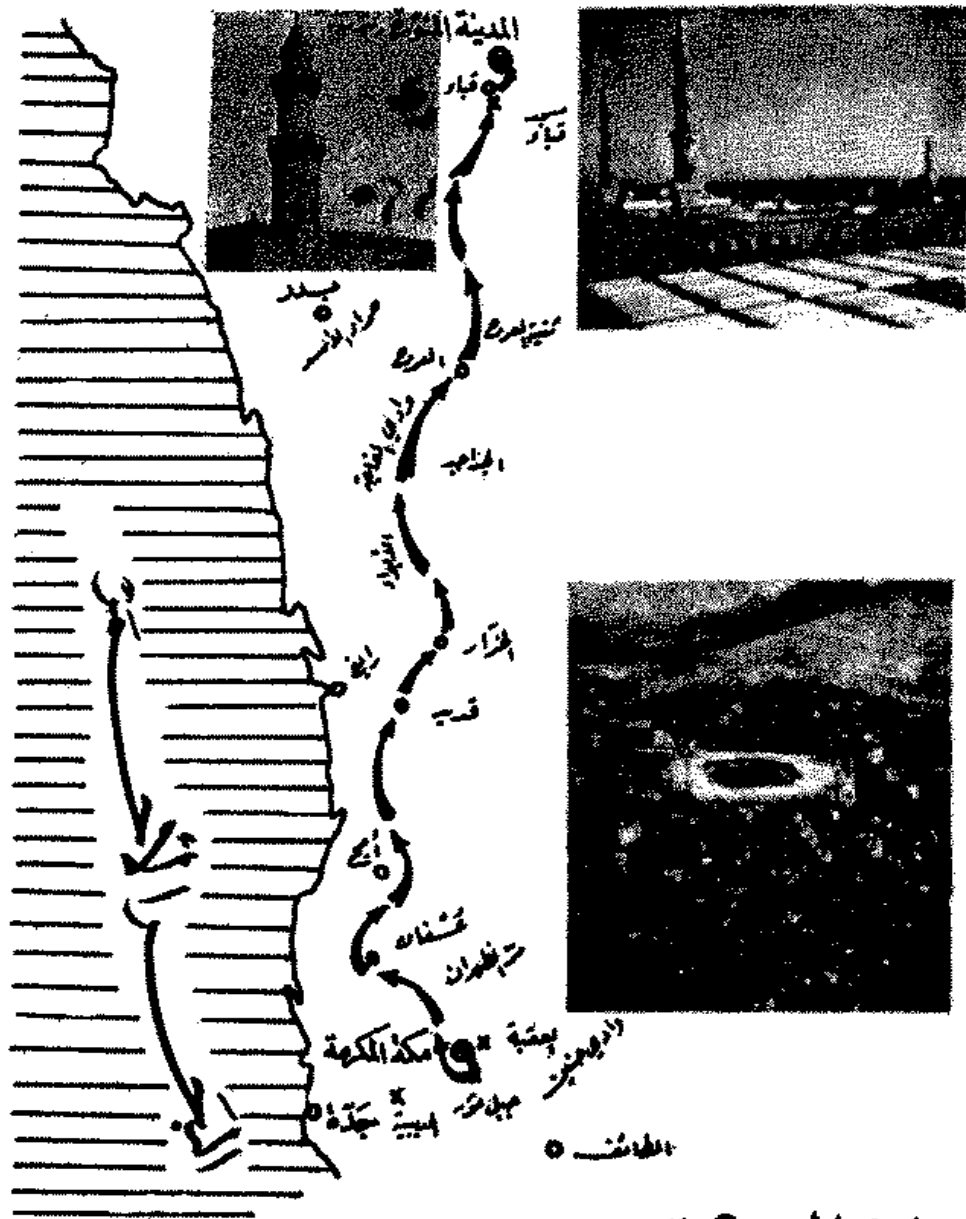
« إني لأُخْرِجُكَ مِنْكَ ، وإني لأَعْلَمُ أَنَّكَ أَحَبُّ بِلَادِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَوْلَا أَنَّ أَهْلَكَ أَخْرَجُونِي مِنْكَ مَا خَرَجْتُ مِنْكَ ^(١) » . وقال ﷺ : « اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُمْ أَخْرَجُونِي مِنْ أَحَبِّ الْبِلَادِ إِلَيَّ ، فَأَسْكِنِّي أَحَبَّ الْبِلَادِ إِلَيْكَ » .

إنها كلمات وداع .. وكلمات دعاء يقطر حبا وحنانا إلى الوطن ، ويفيض حسرة وأسى على فراقه .

رَكْبٌ يَمْضِي عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ وَبِعَنَائَتِهِ

روى البخاري بسنده عن أبي بكر رضي الله عنه قال : أخذ علينا بالرمح صد ، فخرجنا ليلا ، فَأَحْشَيْنَا — أَسْرَعْنَا — لَيْلَتَنَا وَيَوْمَنَا حَتَّى قَامَ قَائِمُ الظَّهِيرَةِ ، ثُمَّ رَفِيعَتُ لَنَا — ظَهَرَتْ لَنَا — صَخْرَةٌ ، فَأَتَيْنَاهَا وَلَهَا شَيْءٌ مِنَ الظِّلِّ ، ففُرِشَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ فُرُوشَ مَعِي ، ثُمَّ اضْطَجَعَ عَلَيْهِمَا ﷺ ، فَانْطَلَقَتْ أَنْتَقَضَ — أَبْحَثَ وَأَنْقَضَى — مَا حَوْلَهَا ، فَإِذَا أَنَا بِرَاعٍ قَدْ أَقْبَلَ فِي غَنِيْمَةٍ — غَنَمٌ قَلِيلَةٌ — يَرِيدُ مِنَ الصَّخْرَةِ مِثْلَ الَّذِي أَرَدْنَا . فَسَأَلْتُهُ : لِمَنْ أَنْتَ يَا غَلَامُ ؟ قَالَ : أَنَا لِفُلَانٍ ، فَقُلْتُ لَهُ : هَلْ فِي غَنَمِكَ مِنْ لَبَنٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قُلْتُ لَهُ : هَلْ أَنْتَ حَالِبُهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَأَخَذَ شَاةً مِنْ غَنِيمِهِ ، فَقُلْتُ لَهُ : انْقَضَ الضَّرْعُ ، فَحَلَبْ كَنْشِبَةً — قَلِيلًا — مِنْ لَبَنٍ ، وَمَعِيَ إِدَاوَةٌ « سَقَاءَ لِلْمَاءِ » مِنْ مَاءٍ عَلَيْهَا خِرْقَةٌ قَدْ وَرَّأَتْهَا « شَدَّدْتُهَا بِهَا وَرَبَطْتُهَا عَلَيْهَا » لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَصَبَبْتُ عَلَى اللَّبَنِ حَتَّى بَرَدَ أَسْفَلُهُ ، ثُمَّ أَتَيْتُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ : اشْرَبْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَشَرِبَ ﷺ حَتَّى رَضِيتُ ، ثُمَّ ارْتَحَلْنَا وَالطَّلَبُ فِي أَثَرِنَا .

(١) عيون الأثر ، ج : ٢ ، ص : ١٨٢ ، و « صور من حياة الرسول » ، ص : ٢٤٦ ، ولذلك ، جاء في فتوح البلدان للبلاذري ، صفحة ٢٥ ، دعاء للنبي ﷺ يطلب فيه من الله عز وجل أن يحبب إليه المدينة : « اللَّهُمَّ طَيِّبْ لَنَا الْمَدِينَةَ كَمَا طَيِّبْتَ لَنَا مَكَّةَ ، وَبَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَا وَمَسَاكِينَا » .



مُصَوِّرُ الْحَجَّةِ

وَالطَّرِيقَ إِلَى سَلَاةِ الرَّسُولِ وَالْعِظَمِ مَرْمِةً وَالْمَكْرَمَةِ إِلَى هَيْئَةِ الْوُفَاةِ

سُرَاقَةُ بَنِي مَالِكٍ بِنَجْعَشٍ الْمَدْلُجِيِّ

جعلت قريش مائة ناقة لمن يرد النبي ﷺ عليهم ، وبينما سراقَةُ بن مالك بن جعشم جالس في نادي قومه ، إذ أقبل رجل من القوم حتى وقف عليهم ، فقال : والله لقد رأيت ركة ثلاثة مرشوا عليّ آنفاً ، إني لأراهم محمداً وأصحابه . فأوماً إليه سراقَةُ بعينه أن اسكت ، وقال سراقَةُ : إنما هم بنو فلان يتبعون ضالة لهم ، قال الرجل : لعله ، ثم سكت .

يقول سراقَةُ : ثم مكثت قليلاً ، ثم قمت فدخلت بيتي ، ثم أمرت بفروسي ، فقيد لي إلى بطن الوادي ، وأمرت بسلاحي ، فأخرج لي من آخر حجرتي ، ثم أخذت قداحي التي استقسم بها ، ثم انطلقت ، فلبست درعي ، ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذي أكره « لا يضره » وكنت أرجو أن أردّه على قريش فأخذ مائة الناقة .

قال سراقَةُ : فركبت على أثره ، فبينما فرسي يشتد بي عثر بي ، فسقطت عنه ، فقلت : ما هذا ؟ ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذي أكره « لا يضره » ، فأبيت إلا أن أتبعه ، فركبت في أثره ، فبينما فرسي يشتد بي ، عثر بي ، فسقطت عنه ، فقلت : ما هذا ؟ ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذي أكره « لا يضره » فأبيت إلا أن أتبعه فركبت في أثره ، فلما بدا لي القوم ورأيتهم عثر بي فرسي ، فذهبت يداه في الأرض ، وسقطت عنه ، ثم انتزع يديه من الأرض ، وتبعهما دخان كالاعصار ، فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منّ مني وأنته ظاهر^(١) .

يقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه^(٢) : فارتحلنا والقوم يطلبوننا ، فلم

(١) لقصة سراقَةُ راجع السيرة النبوية ، ج : ١ ، ص : ٣٧٢ - ٣٧٥ ، والكمال في التاريخ ، ج : ٢ ، ص : ٧٤ ، والبداية والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ١٨٥ ، وابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ٩٦ ، والوفاء بأحوال المصطفى ، ج : ١ ، ص : ٣٤٠ ، وعيون الآثار ، ج : ٢ ، ص : ١٨٤ .

(٢) « أسد الغاية في معرفة الصحابة » ، الجزء الثاني ، صفحة : ٣٣١ وما بعدها ، طبعة « دار الشعب » ، وراجع أيضاً : « الكامل في التاريخ » ، الجزء الثاني ، الصفحة : ٧٤ ، طبعة عام ١٣٤٩ هـ .

يدركنا إلا سراقه بن مالك بن جعشم المدلجي ، على فرس له ، فقلت : يا رسول الله ، هذا الطلب قد لحقنا ، قال : لا تحزن ؛ إن الله معنا ، حتى إذا دنا منا قدر رمح أو رمحين ، قلت يا رسول الله : هذا الطلب قد لحقنا ، وبكيت . قال : لم تبكي ؟ قال الصديق : والله ما أبكي على نفسي ، ولكنني أبكي عليك ، قال الصديق رضي الله عنه : فدعا عليه فقال : اللهم اكفناه بما شئت ، فساخت فرسه إلى بطنها في أرض صلد ، ووثب عنها ، وقال : يا محمد ، قد علمت أن هذا عملك ، فادع الله أن يتجني مما أنا فيه . فوالله لأغيبن على من ورائي من الطلب ، فدعا رسول الله ﷺ ، فأطلق ، وتكرّر سقوطه عن فرسه ثلاث مرات (١) . وفي الأخيرة قال له رسول الله : « كيف بك إذا لبست سوارى كسرى ومنطقته وتاجه (٢) » . قال سراقه : كسرى بن هرمز ؟ قال النبي : نعم . فقال سراقه : اكتب لي كتاباً يكون آية بيني وبينك . . . لقد أدرك سراقه أن محمداً نبي ، ولا بد منتصر ، فأراد طلب الأمان منه عند ظهوره .

فكتب له الصديق كتاباً على عظم ، أو في رقعة . . ثم ألقاه له ، فجعله في كنانته ، وعرض على النبي ﷺ وعلى أبي بكر رضي الله عنه الزاد والمتاع ، فلم يقبل شيئاً منه وقالوا : لا حاجة بنا إلى زادك وطعامك ، ولكن عَمَّ عنا الطلب ، فعاد سراقه لا يلقاه أحد يريد الطلب إلا قال : كفيتم ، ما ههنا ، ولا يلقى أحداً إلا رده .

وأسلم سراقه بعد فراغ النبي ﷺ من حُتَيْن والطائف . . ودخل في كتيبة من خيل الأنصار باتجاه مكان رسول الله ، فجعلوا يقرعونه بالرماح ويقولون : إليك ماذا تريد ؟

قال سراقه : فدنوت من رسول الله ﷺ وهو على ناقته ، فرفعت يدي بالكتاب ، ثم قلت : يا رسول الله ، هذا كتابك ، أنا سراقه بن جعشم ، فقال رسول الله ﷺ : يوم وفاء وبر ، أدنه ، قال سراقه : فدنوت منه ، فأسلمت .

(١) راجع هامش رقم : ١ في الصفحة السابقة .

(٢) رواه ابن عيينة عن أبي موسى عن الحسن رضي الله عنه .

ولما أتت عمر رضي الله عنه غنائم المدائن والجبهة الفارسية ، وإذا بها تاج كسرى ومنطقته وسواراه ، فدعا سراقة وألبسه إياهما ، وقال له عمر : ارفع يديك وقل : الله أكبر . . الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز ، الذي كان يقول : أنا رب الناس ، وألبسهما سراقة رجلاً أعرايياً من بني مدلج ، ورفع عمر بهما صوته (١) ، تحقيقاً لوعده الله ، ووفاء بمهد رسول الله ﷺ .

لقد تحققت نبوءة رسول الله ﷺ ، التي قالها وهو في أشد ساعات الحرج ، عندما كان مطارداً مطلوباً من قومه . ومن كان من العرب يتصور أن سراقة العربي البدوي ، الذي لا يجول بخاطرهم أن تواتيه لحظة في حياته ، يستطيع فيها أن يقترب من إيوان كسرى ، يلبس سواريه ومنطقته ، ولكن لم العجب ! إنه الإسلام به عزّ العرب ، وإنه لمحمد بن عبد الله به سجل التاريخ فخرهم ومجدهم .

حَدِيثُ أَرْمَعَبْد

« معجزة أخرى لرسول الله ﷺ (٢) » :

الركب يسير ، ويتحمّل المشاق ، وهو يعلم بأنّ الله لن يجري لهم الأمور إلا بخير ، وكلما أرهقهم السير نزلوا منزلاً فاستراحوا ، وتلمسوا من الحيّ المقيمين عند منزلهم بعض الطعام أو الشراب ، حتى مرّوا في طريقهم بأمّ معبد الخزاعية (٣) ، وهي أعراية كريمة ، كانت تجلس أمام خيمتها مجلس الرجال ، فتتطعم وتسقي من يمر بها من السيّارة . فسألوها تمراً أو لحماً يشترون منه ، فلم يصيبوا عندها شيئاً ، وأبدت أسفها قائلة : والله لو كان عندنا شيء

(١) « الكامل في التاريخ » ، ج : ٢ ، ص : ١٢٢/١٢٣ .

(٢) حديث أم معبد في « البداية والنهاية » ، ج : ٣ ، ص : ١٩٠ .

(٣) واسمها : عاتكة بنت خالد بن منقذ بن ربيعة ، خزاعية كعبية ، وأصبحت صحابية فيما بعد بعد ما رآته من رسول الله ﷺ ، وفي شرح السنة للبيهقي : هاجرت هي وزوجها وأسلم أخوها أيضاً حبش واستشهد يوم الفتح ، وكان أهلها يؤرخون بيوم نزول الرجل المبارك ، « هامش السيرة الحلبية » ، ج : ١ ، ص : ٣٧١ .

ما أعوزكم القرى ، وما كنتم إذن بحاجة إلى أن تسألوا شيئاً ، أو تدفعوا شيئاً ،
لقد كانت السنة مجدية ، والبادية في قحط شديد .

فنظر رسول الله ﷺ في كسر الخيمة فقال : ما هذه الشاة يا أم معبد ،
قالت : هذه شاة خلّفتها الجهد ، والضعف والاعياء ، عن الغنم ، فقال : هل بها
من لبن ؟ قالت : هي أجهد من ذلك ، قال : أتأذنين لي أن أحلبها ؟ قالت : نعم .
إن رأيت بها حلباً .

فدعا ﷺ بالشاة ، فمسح ضرعها ، وذكر اسم الله وقال : اللهم بارك لها في
شاتها ، فسفّاجت^(١) ودرجت واجترجت ، فدعا بإفاء يرض الرهط^(٢) ،
فحلب فيه شجاً^(٣) حتى غلبه الشمال^(٤) ، فسقاها - سقى أم معبد - فشربت
حتى رويت ، وسقى أصحابه حتى رَوَوْا ، وشرب ﷺ آخرهم وقال : ساقى
القوم آخرهم . ثم حلب فيه ثانياً عَوْداً على بدء حتى امتلأ الإناء ، ثم غادره
عندها ، وبايعها وارتحلوا عنها .

وما لبثت حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق أعزاً عجافاً . فلما رأى اللبن
عجب وقال : من أين لك هذا اللبن يا أم معبد والشاة عازبة^(٥) ولا حنثوبة
في البيت ؟

قالت : لا والله ! إلا أنه مرّ بنا رجل مبارك ، كان من حديثه كيت وكيت .

قال : والله إني لأراه صاحب قريش الذي يطلب ، صفيه لي أم معبد .

قالت :

(١) فتحت ما بين أرجلها وورث باللبن .

(٢) يشبع الجماعة .

(٣) لبنا غزيراً ، وبقيت تدر بغزارة حتى عام الرمادة أيام خلافة عمر رضي الله عنه .

(٤) الشمال : الرغبة .

(٥) غائبة عن البيت .

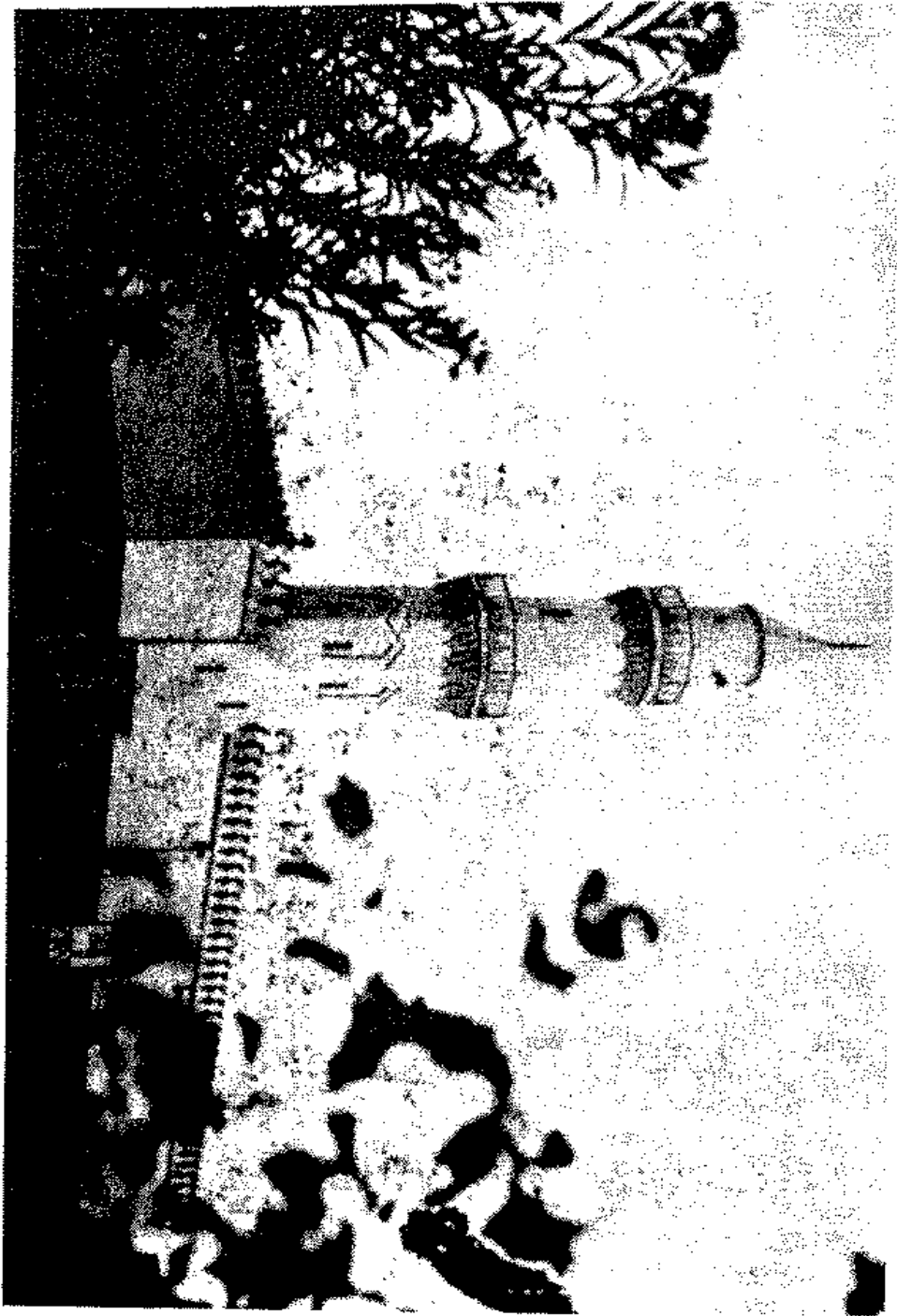
رأيت رجلاً ظاهراً الوضاعة، أبلغ الوجه^(١)، حسن الخلق، لم تعب ثجلة^(٢)، ولم تزر به صعلة^(٣)، وسيماً قسيماً^(٤)، في عينيه دمع^(٥)، وفي أشفاره وطف^(٥)، وفي عنقه سطع^(٥)، وفي صوته صحل^(٥)، وفي لحيته كثافة، أزج^(٦)، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء، فهو أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنهم وأجملهم من قريب، حلو المنطق، فصل لا نزر ولا هزر^(٧)، كأن منطقه خرزات نظم يتحدرون ربعة، لا يأس من طول، ولا تقتحمه عين من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظرأً، وأحسنهم ندراً، له رفقاء يحفون به، إن قال انصتوا لقوله، وإن أمر تبادروا إلى أمره، محفود محشود لا عابس ولا مفند .

قال أبو معبد : هو والله صاحب قریش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر بمكة، ولقد هممت بأن أصعبه ، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً .
ومرء بأم معبد فتیان قریش ، فسألوها عن محمد ، فتعاجمت عليهم ، وقالت لهم : إنكم تسألون عن شيء ما سمعت به قبل عامي هذا .

ذَكَاءُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ

كان أبو بكر رضي الله عنه يكثر الأسفار للتجارة ، فكان معروفاً عند سكان الساحل حيث تمر القوافل ، فكان إذا سأل أحد عن رفيقه في الطريق ، يجيب بقوله : هادي يهديني السبيل ، ولا يتكلم إلا ويوري في كلامه .

-
- (١) أبلغ الوجه : مشرق الوجه .
(٢) الثجلة : عظم البطن والاسترخاء في أسفله .
(٣) لم يعبه صفر في الرأس ، الصعلة : صفر الرأس .
(٤) القسيم : الحسن .
(٥) الدمع : سواد العين ، والوطف : كثير شعر العينين والعاجبين ، والسطع : الطول ، والصحل : البهجة .
(٦) أزج اقترن : دقة في العاجبين مع اقترانها .
(٧) لا نزر ولا هزر : النزر القليل .



مسجد قیام

وكان الرسول الأعظم يقول له : ألك الناس ، أي أشغل الناس عني ، أي تكفّل عني بالجواب لمن يسأل عني ، فإنه لا ينبغي لنبي أن يكذب ولو صورة كالتورية .

فكان جواب الصديقّ الذكي ينقذ الموقف .

وقبل وصول الركب إلى المدينة رأى النبي ﷺ الزبير بن العوام في ركب من المسلمين ، في طريق عودتهم من تجارة لهم في الشام فكسا الزبير رسول الله وأبا بكر ثيابَ بياض .

الرَّكْبُ الْمُبَارَكُ فِي قُبَاءَ

وفي ١٢ ربيع الأول حين اشتد الضحاء ، وكادت الشمس تعتدل ، وصل الركب المبارك قُبَاءَ^(١) ، وقدم على بني عمرو بن عوف ، وكان الأنصار لما سمعوا بمخرج رسول الله ﷺ من مكة ، وانتظروا قدومه ، يخرجون إذا صلوا الصبح إلى ظاهر المدينة ينتظرون رسول الله ﷺ ، فلا يبرحون حتى تغلبهم الشمس على الظلال ، فإذا لم يجدوا ظلًا دخلوا المدينة ، حتى إذا كان اليوم الذي قدم رسول الله ﷺ جلسوا كما كانوا يجلسون حتى إذا لم يبق ظل دخلوا بيوتهم .

فقدم رسول الله ﷺ ، فكان أول من رآه رجل من اليهود ، قد رأى ما كان يصنع المسلمون ، وأنهم ينتظرون قدوم النبي عليهم ، فصرخ بأعلى صوته : [يا بني قيلة^(٢) ، هذا جدّكم قد جاء] .

قال بعض الأنصار : فخرجنا إلى رسول الله ﷺ وهو في ظل نخلة ومعه أبو بكر رضي الله عنه في مثل سنّته ، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله ﷺ قبل

(١) وصل ﷺ في ١٢ ربيع الأول للسنة الرابعة عشرة من البعثة ، الموافق ١٨ من ٥ توز ، يولية سنة ٦٦٢ للميلاد . يقول الكلبي : « خرج النبي ﷺ من الغار يوم الاثنين أول يوم من ربيع الأول ، ودخل المدينة يوم الجمعة لثنتي عشرة منه » .

(٢) قيلة : جدّة الأنصار ينسبون إليها . و«جدّكم» : سعدكم وحظكم ، غناكم وعظمتكم .

ذلك ، وازدحم الناس على رسول الله ﷺ وما يعرفونه من أبي بكر رضي الله عنه ، حتى زال الظل عن رسول الله ﷺ ، فقام أبو بكر فأظله بردائه ، فعرفناه عند ذلك .
أقام النبي الكريم في قباء في بني عمرو بن عوف يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس ، وأسس مسجده ، وهو أول مسجد بُني في الإسلام .

روى الطبراني عن الشَّمَّوس بنت النعمان ، قالت : نظرت إلى رسول الله ﷺ حين قدم فنزل وأسس المسجد - مسجد قباء - فرأيتُه يأخذ الحجر والصخرة حتى يُصْهِرَ الحجر^(١) ، فيأتي الرجل من أصحابه فيقول : يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي تعطيني أكفك ، فيقول : لا خذ مثله حتى أسسه .

ولما أراد النبي الكريم دخول المدينة ، فرح أهلها بقدومه ، وأضاء منها كل شيء . يقول أنس رضي الله عنه : شهدت يوم دخول رسول الله ﷺ المدينة ، فلم أَرَ أحسن منه ولا أضوأ^(٢) .

وفي البخاري عن البراء بن عازب قال : مارأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ .

لقد ازدانت المدينة ، ولبس الناس أحسن ملابسهم ، كأنهم في يوم عيد ، وصرخ الناس رجالهم ونساءهم جاء رسول الله ، جاء رسول الله ، وجعل الإماء والجواري ينشدن ويغنين ويضربن بالدفوف ، والخبشة تلعب بحرابها فرحاً بقدومه ﷺ .

وجاء في الصَّحَّيْحين ، وخرج الناس حين قدوم النبي وأبي بكر في طريق المدينة ، وعلى سطوح بيوتها ، والغلمان والخدم يقولون : الله أكبر ، جاء رسول الله ، الله أكبر . وجعلت النساء والصبيان والولائد يَقْلُتْنَ :

(١) المراد ضخامة الحجر وكانت تقالبه وتجذبه اليه من ثقله .

(٢) عيون الأثر ، ج : ٢ ، ص : ١٩٢ .

طلع البدر علينا	من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا	ما دعا الله داع
أيها المبعوث فينا	جئت بالأمر المطاع
جئت شرفاً للمدينة	مرجأ يا خير داع

ودخل النبي ﷺ المدينة والمسلمون يحيطون به مشاة وركباً ، وقد تقلدوا سيوفهم ، وتحلّوا بأحسن ملابسهم ، وعلا وجوههم الزهش والبشر والابتهاج بمقدم رسول الله ﷺ ، وقد بلغ من حرصهم على كرامة رسول الله وتعظيمه ، أن كانوا يتزاحمون على زمام ناقته ، حتى ينازع أحدهم صاحبه في الوصول إليه والتبرك به (١) .

واعترضته القبائل لينزل عندها (٢) ، فأناه عتبان بن مالك ، وعباس بن عباد في رجال من بني سالم بن عوف ، وقد أمسكوا بناقته ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، أقم عندنا في العدة والمنعة ، قال ﷺ : خلوا سبيلها ، فإنها مأمورة ، فخلوا سبيلها ، فانطلقت الناقة حتى إذا مرّت بدار بني ساعدة اعترضه سعد بن عباد والمندر بن عمرو في رجال من بني ساعدة ، فقالوا وقد اعترضوا الناقة : يا رسول الله ، هكّم إلينا إلى العدد والعدة والمنعة ، قال ﷺ : خلوا سبيلها ، فإنها مأمورة ، فخلوا سبيلها ، فانطلقت حتى إذا حلت ديار بني الحارث بن الخزرج ، فقالوا : يا رسول الله ، هكّم إلينا إلى العدد والعدة والمنعة ، قال :

(١) صور من حياة الرسول ، ص : ٢٥٢/٢٥٣ .

(٢) وهذا ما كان من بريدة الأسلمي أيضاً ، لما ركب في سبعين فارساً من أهل بيته من بني سهم يريد النبي لآخذ الجائزة من قريش . ولقي النبي ﷺ قبيل دخوله قباء ، فقال رسول الله ﷺ أنه لا يتخير وكان يتفادى . وقال : يا أبا بكر يرد أمرنا وصلح ، ثم قال : ممن أنت ؟ قال : من أسلم . قال رسول الله ﷺ : لا يكر : سلماً . قال : ممن ؟ قال : من بني سهم ، قال : خرج سهمك يا أبا بكر ، فقال بريدة : من أنت ؟ قال : أنا محمد بن عبد الله رسول الله . قال بريدة : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فأسلم بريدة وأسلم من كان معه جميعاً . فلما أصبح قال للنبي ﷺ : لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء ، فحل النبي ﷺ عمامته ثم شدّها في رمح ، ثم مشى بين يديه ، فقال بريدة : يا نبي الله تنزل عليّ ، فقال النبي الكريم : إن ناقتي هذه مأمورة . فقال بريدة : الحمد لله الذي أسلمت بنو سهم طاعتين غير مكرهين . (الوفاء بأحوال المصطفى لابن الجوزي ، ج : ١ ، ص : ٢٤٧)

خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، فخلوا سبيلها ، فانطلقت حتى إذا حلت ديار بني عدي بن النجار ، فإذا بفتياتهم ونسائهم وأطفالهم يشدون :

نحن جوار من بني النجار وحذا محمد من جار^(١)

واعترض الناقة سليط بن قيس وأبو سليط في رجال من بني عدي بن النجار ، فقالوا : يا رسول الله هكلم^(٢) إلى أخوالك - أم النبي من بني النجار - ، إلى العدد والعدة والمنعة ، قال ﷺ : خلوا سبيلها ، فإنها مأمورة ، فخلوا سبيلها ، فانطلقت حتى إذا أتت دار بني مالك بن النجار ، بركت في مكان يجفف فيه التمر « مربد » ، وهو لفلانين يتيمين من بني النجار ، وهما في حجر معاذ بن عفراء ، وهما سهل وسهيل ابني عمرو ، فنزل عنها رسول الله ﷺ ، فاحتمل أبو أيوب الأنصاري - خالد بن زيد - رَحْلَهُ فوضعه في بيته^(٣) ، ونزل عليه رسول الله ﷺ وسأل عن المربد لمن هذا ؟ فقال له معاذ بن عفراء : هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابني رافع بن عمرو بن أبي عمرو ، وهما يتيمان لي ، وسأرضيهما منه ، فاتخذة النبي ﷺ مسجداً ، ونزل على أبي أيوب حتى بثني مسجده ومساكنه ، فعمل فيه رسول الله ﷺ ليرغب المسلمين في العمل فيه ، فعمل فيه المهاجرون والأنصار ، ودأبوا فيه فقال قائل من المسلمين :

هذا الحِمَال لا حِمَال خَيْبَرٌ هذا أبرٌ رَبَّنَا وأَطْهَرُ
اللهم إن الخيرَ خيرُ الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة^(٤)

وارتجز المسلمون أيضاً :

لا عيش إلا عيش الآخرة اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة

(١) ألوفاً بأحوال المصطفى ، ج : ١ ، ص : ٢٥٢ . وكان ﷺ يجيبون : « الله يعلم أني أحبكي » .
(٢) دور المدينة المنورة تبلغ تسماً : كل دار محلة مستقلة بساكنها ونخيلها وزرعها وأهلها وكل قبيلة من قبائلهم قد اجتمعوا في محلهم ، فهي كالقرى المتلاصقة .
(٣) ألوفاً بأحوال المصطفى ، ج : ١ ، ص : ٢٥٤ .

فيقول رسول الله ﷺ : لا عيش إلا عيش الآخرة ، اللهم ارحم المهاجرين والأنصار •

وارتجز علي كرم الله وجهه (١) يومئذ :

لا يستوي من يعمر المساجدا يدأب فيه قائماً وقاعدا

بِنَاء مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

بني مسجد رسول الله ﷺ ، سقفه من جريد ، وقبلته من اللبن ، أو من الحجارة المنضودة بعضها على بعض ، وأعمدته من جذوع النخل ، إذا رفع أحدهم يده طال سقفه •

فِي بَيْتِ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ

يقول أبو أيوب الأنصاري : لما نزل عليّ رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السفّل — في الطابق الأرضي — وأنا وأم أيوب في العلو — في الطابق العلوي — فقلت له : يا نبي الله بأبي أنت وأمي ، إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي ، فإظهر أنت فكن في العلو ، ونزل عنه فتكون في السفّل ، فقال : « يا أبا أيوب إنّ أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفّل البيت » ، فالطابق الأرضي أيسر لزوار النبي لقربه من باب البيت ، والحادثة كلها تدل على الأدب الكامل ، الأدب الناتج عن الحب والاحترام لرسول الله ﷺ ، « ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب » •

(١) أقام علي رضي الله عنه بمكة ثلاث ليال وأيامها ، حتى أدى عن رسول الله ﷺ الإمانات التي كانت عنده للناس ، حتى إذا فرغ منها خرج من مكة ماشياً يسير بالليل ويختفي بالنهار ، حتى تورمت قدماء ، فلما رآه اعتنقه وبكى رحمة لما يقدمه من الودم ، ثم أمر عليها يده الشريفة ، فشفيتا بأذن الله ، فلم يشتك منهما بعد ذلك ، ونزل مع رسول الله ﷺ •

ويقول أبو أيوب الأنصاري ، فكان رسول الله ﷺ في أسفل البيت ، وكنا فوقه في المسكن ، ويقول : انكسر حُبٌّ - جرة ضخمة - لنا فيه ماء ، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا مالنا لحاف غيرها ، نكشف بها الماء تخوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه •

وقال : وكنا نضع له العشاء ، ثم نبعث إليه ، فإذا ردت علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه ، نبتغي بذلك البركة ، حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه ، وقد جعلنا له بصلاً وثوماً ، فردّه رسول الله ﷺ ، ولم أرَ ليده فيه أثراً ، قال أبو أيوب : فجئته فزعاً ، فقلت : يا رسول الله بأبي أنت وأمي ، رددت عشاءك ، ولم أرَ فيه موضع يدك ، وكنت إذا رددته علينا تيممت أنا وأم أيوب موضع يدك ، نبتغي بذلك البركة ، قال ﷺ : إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة ، وأنا رجل أناجي ، فأما أنتم فكلوه ، فأكلناه ، ولم نصنع له تلك الشجرة بعد^(١) .

أَوَّلُ خُطْبَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَدِينَةِ

ومن أول خطب رسول الله ﷺ : حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد ، أيها الناس ، فقدّموا لأنفسكم ، تعلمن والله ليصعقن أحدكم ، ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولي فبكفك ، وآتيتك مالا وأفضلت عليك ؟ فم قدمت لنفسك ؟ فليظرن يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق من تمره فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته^(٢) •

(١) ابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ١٠٤ • والبداية والنهاية ، ج : ٣ ، ص : ٢٠١ •

(٢) ابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ١٠٥ •

ثم خطب ﷺ مرة أخرى فقال : إن الحمد لله ، أحمدده وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، أن أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى ، قد أفلح من زينته الله في قلبه ، وأدخله في الإسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس ، إنه أحسن الحديث وأبلغه ، أحبوا ما أحب الله ، أحبوا الله من كل قلوبكم ، ولا تملوا كلام الله وذكره ، ولا تقس عنه قلوبكم ، فإنه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفى ، وقد سماه الله خيرته من الأعمال ومصطفاه من العباد ، والصالح من الحديث ، ومن كل ما أوتي الناس الحلال والحرام ، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، واتقوه حق تقاته ، وصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم ، وتحابثوا بروح الله بينكم إن الله يغضب أن ينكس عهده ، والسلام عليكم .

الرَّسُولُ ﷺ يَوَادِعُ الْيَهُودَ

وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار ، وادع فيه اليهود وعاهدهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم ، واشترط عليهم (١) :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي ﷺ ، بين المؤمنين والمسلمين من قریش ویشرب ، ومن تبعهم ، فلحق بهم ، وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قریش على ربعتهم يتعاقلون بينهم ، وهم يقدون عانيهم — أسيرهم — بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم — الديكات — الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم

(١) وفي هذه الأثناء أرسل زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة وأعطاهما خمسمائة درهم وبميرين ، فقدمتا بفاطمة وأم كلثوم ابنتيه ، وسودة زوجته ، وأسامة بن زيد ، وخرج عبد الله بن أبي بكر معهم بميال أبي بكر فيهم عائشة .

الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وإن المؤمنين لا يتركون مفرحاً^(١) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل .

وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم ، أو ابتغى دسيعة^(٢) ظلم ، أو إثم ، أو عدوان ، أو فساد بين المؤمنين ، وإن أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن ، وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدانهم ، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس ، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ، وإن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله ، إلا على سواء وعدل بينهم ، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً ، وإن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله ، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ، وإنه لا يجير مشرك^(٣) مالا لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن ، وإنه من اعتبط^(٤) مؤمناً قتلاً من بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول ، وإن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه ، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر ، أن ينصر محدثاً^(٥) ولا يؤويه ، وأنه من نصره

(١) المرح : الخقل بالدين والكثير العيال .

(٢) الدسيعة : العظيمة .

(٣) لعله يقصد من دخلوا في الحلف من مشركي المدينة .

(٤) اعتبط : قتل بلا جناية .

(٥) المحدث : الذي يجني جناية .

أو آواه ، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل ، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء ، فإن مردّه إلى الله عز وجل ، وإلى محمد ﷺ ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ^(١) إلا نفسه ، وأهل بيته ، وإن ليهود بني النجار مثل ماليهود بني عوف ، وإن ليهود بني الحارث مثل ماليهود بني عوف ، وإن ليهود بني ساعدة مثل ماليهود بني عوف ، وإن ليهود بني جشم مثل ماليهود بني عوف ، وإن ليهود بني الأوس مثل ماليهود بني عوف ، وإن ليهود بني ثعلبة مثل ماليهود بني عوف ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته ، وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم ، وإن بطانة يهود كأنفسهم ، وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ ، وأنه لا ينحجز على ثار جرح ، وأنه من فتك فبنفسه فتك ، وأهل بيته ، إلا من ظلم ، وإن الله على أبر هذا^(٢) وإن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم ، وأنه لم يَأثم امرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ، وإن يشرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها ، وأنه ما كان بيد أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مردّه إلى الله عز وجل ، وإلى محمد رسول الله ﷺ ، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لا تجار قریش ولا من نصرها ، وإن بينهم النصر على من دهم يشرب ، وإذا دعوا إلى صلح يصلحونه ويلبسونه ، فإنهم يصلحونه ويلبسونه ، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين ، إلا من حارب في الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم ، وإن

(١) يوتغ : يهلك .

(٢) أي على الرضا به .

يهود الأوس ، مواليهم وأنفسهم ، على مثل مالأهل هذه الصحيفة ، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة .

وإن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره ، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وأثم ، وإنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة ، إلا من ظلم أو أثم ، وإن الله جار لمن بر واتقى ،
ومحمد رسول الله ﷺ (١) .

وإن الناظر إلى هذا الحلف ليرى أن الرسول ﷺ (٢) :

١ — استطاع أن يوحد بين جميع المسلمين على اختلاف شعوبهم وقبائلهم ، وأن يجعل منهم أمة واحدة أئمة الإسلام بين قلوب أفرادها المتباينة .

٢ — أوجد التعاون والتضامن بين أفراد تلك الجماعة ، على أساس أن الأخوة في الدين متقدمة على غيرها من الصلات حتى على صلة القرابة .

٣ — شرط لجماعة اليهود المساواة مع المسلمين في المصلحة العامة ، وفتح الطريق للراغبين في الإسلام ، وكفل لهم التمتع بما للمسلمين من حقوق (٣) .

٤ — استطاع رسول الله ﷺ أن يجعل نفسه الشريفة في المدينة المنورة على رأس جماعة من أتباعه كبيرة العدد آخذة في النمو ، يتطلعون إليه زعيماً وقائداً ، ولا يعترفون بسلطان غير سلطانه ، دون إثارة أي شعور من القلق أو خوف التعدي على السلطة المعترف بها .

وهكذا باشر رسول الله ﷺ سلطة زمنية كالتي كان يمكن أن يباشرها أي زعيم آخر مستقل ، مع فارق واحد ، هو أن الرباط الديني بين المسلمين يقوم مقام الأسرة والدم .

(١) النص من ابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ١٠٦/١٠٧/١٠٨ .

(٢) تاريخ الإسلام ، ج : ١ ، ص : ١٠٣/١٠٢ . بتصرف .

(٣) كتب الرسول ﷺ هذا الكتاب قبل أن تفرض الجزية ، وإذا كان الإسلام ضيقاً ، وكان لليهود إذ ذاك نصيب في الغنم إذا قاتلوا مع المسلمين ، كنا شرط عليهم في هذا الكتاب النفقة معهم في الحروب .
(هشام ص : ١٠٨ ، من سيرة ابن هشام ج : ١٠٨) .

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه حين نزلوا المدينة ، ليذهب عنهم وحشة الغربة ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ، ويشد أزر بعضهم ببعض ، فلما عز الإسلام واجتمع الشمل ، وذهبت الوحشة أنزل الله سبحانه : « وأولوا الأرحام بعضهم أولى بعض في كتاب الله » أي في الميراث ، ثم جعل المؤمنين كلهم إخوة فقال سبحانه : « إنما المؤمنون إخوة » ، يعني في التواد وشمول الدعوة •

آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فقال : تأخوا في الله أخوين أخوين ، ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال : هذا أخي ، وحمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة أخوين ، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه وخارجة بن زهير أخو بلعازث بن الخزرج أخوين ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه وعيتبان ابن مالك أخو بني سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج أخوين ، وأبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح وسعد بن معاذ بن النعمان أخو بني عبد الأشهل أخوين ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن الربيع أخوين^(١) •••

وقبل الحديث عن نتائج الهجرة ، نعرض للملاحظات التالية :

١ - عندما خرج النبي ﷺ من مكة مهاجراً ، كان من المفروض أن يتجه شمالاً باتجاه المدينة حيث سبقه أصحابه ، وهذا ما توقعه قريش ، فلا يتعقل أن يهاجر الصحابة إلى المدينة ، ثم يهاجر رسول الله إلى جهة أخرى غيرها •

ولكن النبي ﷺ سار بعكس اتجاه المدينة !!

وهذا تمويه مابعده تمويه ، حتى الدليل سار بغير الطريق المألوف إلى المدينة بعد خروج الركب المبارك من غار ثور ، لقد سار منحدرًا إلى الجنوب

(١) راجع سيرة ابن هشام ، ج : ٢ ، ص : ١٠٩/١١٠/١١١ للاطلاع على أسماء التآخي كلها •

أسفل مكة مولياً وجهه نحو اليمن ، ثم اتجه الى تهامة ومن بعدها على شواطئ البحر الأحمر نحو الشمال • والدليل — عبد الله بن أرقط — يرتجز ، ويعلن عن نفسه في السكير نوعاً من التضليل ، فالهارب لا يعلن عن نفسه •

كل هذا يدل على تحكيم العقل ، والعمل بالأسباب ، والباقي على مسبب الأسباب •

٢ — دخل النبي ﷺ يثربَ فتنوّرت ، وضار اسمها منذ وصول النبي ﷺ (المدينة) أي مدينة رسول الله ، « المنورة »^(١) ، برسول الله ، بعلمه ، بروحه ، بتركته ، ببركته فيها ، بحلول شخصه الكريم بها ••

لقد قالت المدينة عند قدوم رسول الله ﷺ :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع ••

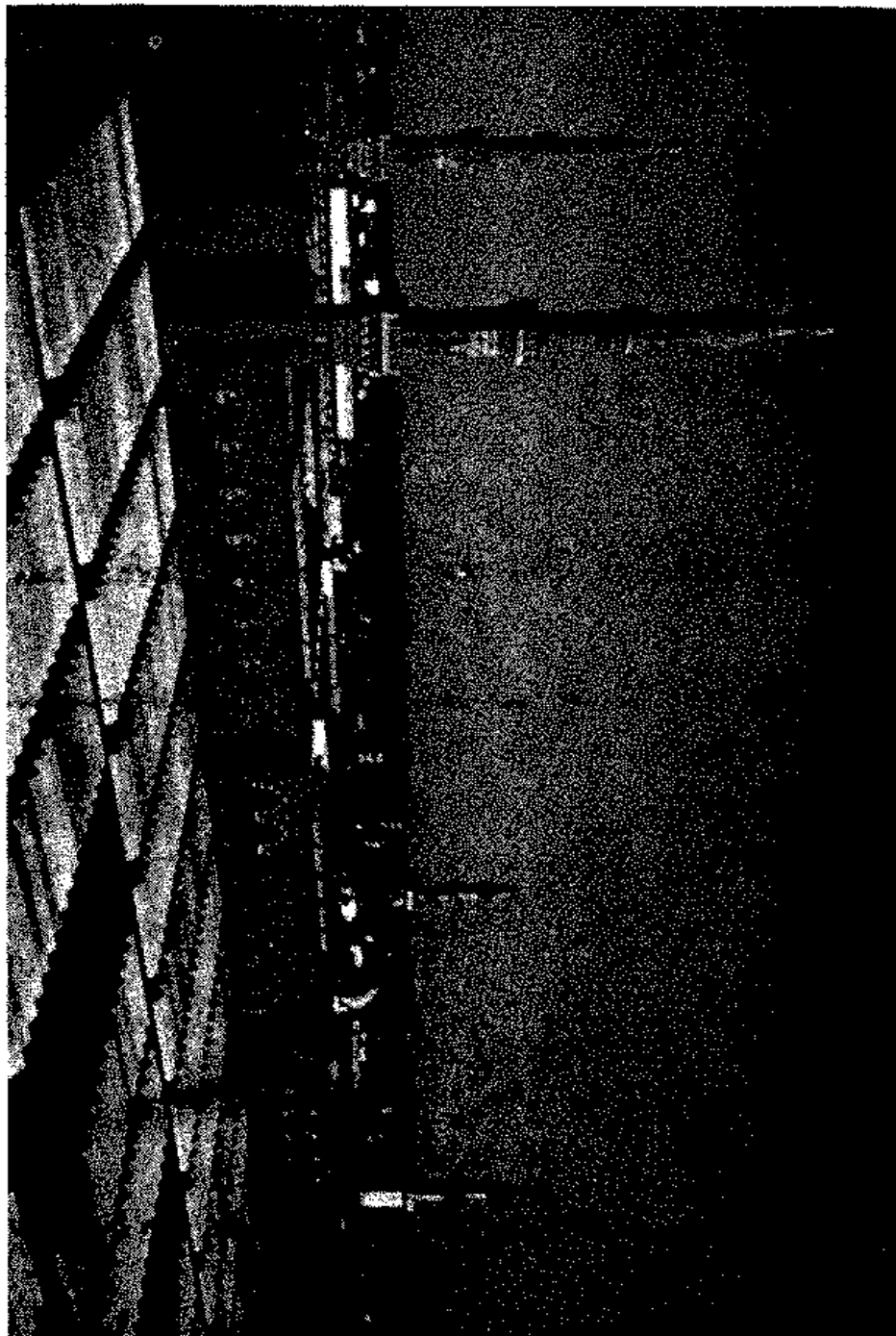
وهذا نشيد الأمة الإسلامية إلى الأبد ، ويا عرب •• طلع عليكم رسول الله بدرأ مشرقاً في سماء مظلمة من العادات والخرافات •• فوجب الشكر عليكم •• فهو الذي سطر لكم فتوحاتكم ، وكتب لكم في تاريخكم مفاخركم ، وسجل أجمل صفحات الانسانية بمبادئ تحمل الإخاء والمساواة والعدل والمحبة •• فمتى نقول لروحه الشريفة وبعد طول اعراض : أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع ؟! لتعودوا إلى عزكم ومجدكم ووحدةكم ؟! •

٣ — مر معنا وصف مسجد رسول الله ﷺ ، مسجد متواضع ، سقفه من جريد النخل ، ومحرا به من لبنين وطين ، وأعمدته من جذوع النخل ، إذا رفع أحدهم يده طال سقفه ••

من هذا المسجد المتواضع البناء تخرج أبو بكر وعمر ، وخالد وسعد ،

(١) ذكر ياقوت الحموي تسعة وعشرين اسماً لها ، منها : المدينة ، وطيبة ، لطيب موائها ، المحببة ، والمحبوبة ، ويثرب ، والناجية ، والمباركة ، والماصة ، والشافية •••

السجدة النبوية في المدينة المنورة



وأبو عبيدة والنعمان ... من هذا المسجد تخرج فاتحو العالم ، الذين نشروا
الإنسانية والإخاء حيثما حلّوا .

فليس المسجد في بنائه الضخم ، ولا في زخرفته الرائعة .. بل في رَجُلِهِ
الذي يحيي القلوب ، ويبعث الهمم ، ويفجّر الطاقات ..

واليوم .. عمارة المسجد عمل طيب ، ولكن العمل على إيجاد العالم المنتج
فيه أمر مهم جداً ، فالعالم المنتج المرابي أينما وُجِدَ — ولو بخيمة في زاوية
مهملة — أوجد حوله التعليم والتربية والدعوة المعطاءة .. فما أحوج المسلمين
اليوم لبناء العالم مع بناء المسجد ، ليحقق البناء الهدف الأبعد الذي بني
من أجله .



نتائج الهجرة

كانت الهجرة النبوية الحجر الأساس
في ارساء قواعد الإسلام ، وانتصار دعوة
التوحيد ، لذا كانت جذيرة بأن يتخذها
المصحابة الكرام مبدا التاريخ لهذه الامة
الاسلامية .

لقد كان من أعظم عبر ودروس الهجرة ، أنه مهما أوتي الحق وأصحاب
الحقوق من قوة الحجج على صدق مبادئهم مما ينحصر في دائرة القوة المعنوية ،
فإن ذلك وحده لا يكفي لانتصار حقهم ، إذا ما تسلح خصومهم بالقوة المادية ،
وحصلوا من أسبابها على ما يتفوقون به على أهل الرشاد .

هاجر النبي ﷺ الى المدينة ، وخطط لاستراتيجية عسكرية واقتصادية
وسياسية ، ووطئ العزم ، على أن يأخذ بكل ما يمكن من سببه ، وبكل
ما استطاع من عمل يسير به خطوة نحو قهر اعدائه وأعداء دعوته والانتصار
عليهم ، وتثبيت دعائم الحق وأركان الدولة العربية الإسلامية .

ولم يكن أمراً عارضاً ولا مصادفة محضة ، ولا مجرد خاطر ، أن يختار
رسول الله ﷺ المدينة المنورة داراً لهجرته ، وملجأً لدعوته ، ومقرّاً لدولته .
وحاشى أن تكون الهجرة فراراً من أعدائه ، أو خوفاً على نفسه وطلباً لشيء
آخر غير نصر الله .

وحقيقة إن الهجرة تمت سراً ، والسرية فيها لم تكن هروباً من المشركين ، ولكن زيادة في ضرب الغشاوة على أبصارهم « فأغشيناهم فهم لا يبصرون » ، وإثباتاً لهم أن محمداً رسول مكلف برسالة من عند الله ، ولكن الحق قد طمس قلوبهم ، فلم يروا النور الذي عم الجزيرة ، ولو فكروا قليلاً لعلموا حقيقة ما يجهلون .

لقد كانت الهجرة الى المدينة لأهمية موقعها من الناحيتين العسكرية والاقتصادية ، ففي شمال الجزيرة العربية أكبر دولتين عظيمتين في العالم حينذاك ، هما دولتا الفرس والروم ، وكان في مكة معقل الشرك ومركز المقاومة للإسلام على يد كفار قريش . فلو أن رسول الله ﷺ هاجر الى اليمن في جنوب الجزيرة أو الى شرقها ، لأعطى الفرصة لكل القوى المناوئة له أن تلتحم وأن تتماسك في جبهة متحدة فيتعرض لمواجهتها ومن ورائه المحيط ، الذي لا يسمح لكفاحه ولجيشه بحرية الحركة ، وفنية المناورة .

ولكنه في المدينة يستطيع أن يكون ذا موقع متوسط بين أعدائه في شمال الجزيرة ، وبين أعدائه في مكة ، فلا يسمح بلقاء بينهما ، كما أنه يستطيع من هذا الموقع نفسه محاصرة قريش اقتصادياً وتهديد تجارتها الى الشام ، التي كانت تمثل أكثر من سبعين في المائة من ثروتها (١) .

فمن نتائج الهجرة :

١ - تجمع المسلمين في موطن واحد يمكنهم من الدفاع عن أنفسهم ، والدعوة إلى دينهم والجهاد بما لم يكونوا يستطيعون الجهر به ، فما كادت تمر سنة على حادث الهجرة حتى وجد المشركون أنفسهم أمام قوة إسلامية تقاثلهم على

(١) من مقال للدكتور محمد بيصار ، في الوعي ١٠٩ غرة المحرم ١٣٩٤ هـ .

كلمة الله ، ومقاومة التجبر والطاغوت ، وتنتصف منهم وهي قلة قليلة فينهزمون
مُخْزِينَ وهم كثرة كثيرة •

إنها قوة التجمُّع والتكتُّل ، تساندها العقيدة الصادقة ، والإيمان الراسخ ،
فتفعل الأعاجيب وتصنع المعجزات ، ولو بقي المسلمون متفرِّقين موزَّعين ما بين
مكة والمدينة ، لما استطاعوا أن يفعلوا شيئاً ، وإن كان الله قادراً على نصرته نبيه ،
واعلاء كلمته ، ولكنه عز وجل ، لم يشرع الشرائع ، وينزل الاديان بما يخالف
سننه في الكون وأحكامه في الخلق ، من تعاطي الأسباب ، واتخاذ الوسائل •

٢٢ - دبت حركة جديدة في المجتمع الإسلامي في المدينة ، ترتب عليها
تأايج ملموسة فهي التي دفعت بهم بعد ذلك إلى فتح البلاد واخضاعها لحكم
الإسلام وعدالته وإنسانيته •

فلم تمر على قيام الدعوة الإسلامية ثلاثة عقود حتى دخلت في طاعتها جميع
الأقطار التي تكوَّن امبراطوريتي فارس والروم ، ولم يكتمل القرن الأول حتى
شمل نفوذها ما بين الصين شرقاً وإسبانية غرباً (١) •

لقد كانت الهجرة هي المنطلق لهذا العمل الجبار • فالهجرة هي المنطلق
العملي ، والموقف الحاسم في تاريخ الإسلام ، وكل ما تحقق بعدها من منجزات ،
وتتابع من نجاحات فهو محسوب عليها ، وراجع إليها ، كما أشرنا في المقدمة •

٢٣ - تفرَّغ النبي لبناء الدولة « ففي مكة بنى الفرد ، وفي المدينة بنى
الدولة » :

بنى ﷺ الفرد المسلم خلال ثلاث عشرة سنة في مكة ، وفي المدينة وخلال
عشر سنوات بنى دولة مترامية الأطراف شملت الجزيرة العربية كلها ، ورسمت
بدء الفتح على الجبهتين الفارسية والرومية •• فالملحوظ أن بناء الفرد استغرق

(١) الشيخ عبد الله كنون ، ص : ٢٦ ، الوحي ٠٠ العدد ١٢١ ، غرم المحرم ١٣٩٥ هـ •

زمناً أكبر من زمن بناء الدولة ، وهذا أمر طبيعي فبناء الفرد هو القاعدة الأساسية في تأسيس وبناء الدولة .

وفي المدينة المنورة أنشأ رسول الله ﷺ « دولة الإسلام » على أسس راسخة ، مع تهيئة الظروف لبقائها واستمرارها .

وكان أول عمل قام به رسول الله ﷺ عند وصوله إلى المدينة ، بناء المسجد ، وهذا دليل جلي واضح على أهمية المسجد في تاريخ الإسلام ، لقد كان « برلمان » الأمة ، فيه عقدت الرايات المظفرة لليرموك والقادسية ونهاوند .. ومنه تخرج قادة هذه الرايات المظفرة ، فهو مدرسة أخلاق وعلوم وتربية وبطولة .. وليس الفضل لجدرانه وسقفه .. الفضل لرجله الذي يصنع الرجال فيه ، يصنع أخلاقهم ويربيهم ويفرس في أرواحهم عشق البطولة ، والتفاني في الالتزام في المبدأ والاستشهاد في سبيله .

وفي المدينة المنورة أخذ رسول الله ﷺ يرتب شؤونه وشؤون أصحابه وينشئ المجتمع المثالي الفاضل على قواعد من الحب والإخاء والعدل والمساواة والتكافل والتعاون والتضحية والإيثار ، وهي المبادئ التي وضعها الإسلام للمجتمع الصالح ليعيش الناس في كل زمان ومكان إخوة متعاونين يسودهم الوئام ، ويظلهم الأمن والسلام .

وهذا المجتمع المثالي الفاضل كان في المدينة شعباً لدولة ذات سيادة متميزة عن قريش وعن اليهود ، مجتمع مثالي كان الإيمان فيه فوق كل نسب ، وفوق كل عصبية أو قبلية ، مجتمع متميز بنسب الإسلام فيه فوق كل نسب .

٤ — حرية الدعوة إلى الله « ضمن مجتمع جديد في كل شيء » :

هاجر المسلمون من مكة بسبب اشتداد العذاب عليهم ، وبسبب كبرياء قريش وتعاليلها .. وفي دار الهجرة بدأ عهد الأمن والاستقرار ، فأخذ النبي ﷺ يضع قواعد المجتمع الصالح . انتهى عهد الاضطراب والخوف ليبدأ عهد

الاستقرار والأمن في المدينة ، وبذلك بدأت حرية الدعوة إلى الله بعد الخلاص من عذاب قريش واذاها • ولما حاولت الوقوف في وجهها كانت القوة الرادعة ، لقد وقف النبي والمسلمون في وجه الكفر بالقوة بعد أن عجز الدليل والبرهان •

لقد أراد ﷺ حياة فاضلة كريمة مثالية أساسها التأخي ، ومظهرها التراحم ، وغايتها السلام ، وعلى هذا نظم الصلوات التي تحيط بالمسلم من جميع جوانبه ، وهي صلة المسلم بالله ، وصلة المسلم بالمسلم ، وصلة المسلم بغير المسلم •

١ - صلة المسلم بالله أساس العبودية الخالصة مع وحدانية مطلقة •

٢ - صلة المسلم بالمسلم أساسها الأخوة بالله « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلّمه ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته » ، على هذا الأساس عرض سعد بن الربيع الأنصاري على عبد الرحمن بن عوف « المهاجر » أن يشاطره ماله ، وأن يطلّق له إحدى زوجتيه ليتزوجها ، فضرب الأنصار بذلك مثلاً في الأخوة لا نظير له في تاريخ الإنسانية كلها •

ولم يستغل المهاجرون هذه العاطفة الكريمة في إخوانهم الأنصار ليعيشوا كليّين عليهم ، بل أخذوا يسمعون ويكدون في سبيل العيش ، فاشتغل بعضهم بالتجارة في أسواق المدينة^(١) ، واشتغل بعضهم بالزراعة في أرض الأنصار •

لقد كانت هذه الأخوة شيئاً جديداً على المجتمع العربي الذي قطعت أوصاله عصبية القبيلة ، وفككت روابطه قرابة الدم ، بل كانت نوعاً فريداً في تاريخ الأخوة الإنسانية ، قضى على كل تعصب للجنس واللون والقزابة والوطن •

(١) جاء في (أسد الغابة) ج : ٢ ، ص : ٣٤٩ ، وج : ٣ ، ص : ٣٨٠ في ترجمة سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف ، أن سعداً قال لعبد الرحمن : إن لي مالا فهو بيني وبينك شطران ، ولي امرأتان فانظر أيتهما أحببت أخالعهما ، فإذا حلت فتزوجها ، فقال عبد الرحمن : لا حاجة لي في أمك ومالك ، ياوك الله في أمك ومالك دلوني على السوق •

٣ - وصلة المسلم بغير المسلم أساسها الأخوة الانسانية^(١) « الخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله » .

٥ - أصبح المسلمون منافساً جديداً لليهود ، فبدأ كيدهم وحقدهم العميق على الإسلام والمسلمين ، وكانوا أولي الناس بأن يؤمنوا بمحمد ﷺ ، مصداقاً لما بين أيديهم من الكتاب ، موافقاً لكل ما يعرفون من صفة هذا النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة . فغلب الحسد والحقد على نفوسهم ، فمزّء عليهم أن يكون هذا النبي من العرب لا من اليهود ، وأن ينازعهم المكانة الدينية أحد غيرهم ، أو تشاركهم أمة أخرى في هذه الميزة التي يعتقدونها أنهم أبناء الله وأحباؤه وشعبه المختار في الأرض ، وأن الرسل والأنبياء لا يكونون إلا منهم^(٢) .

ومع ذلك وقف النبي ﷺ منهم موقف رفيق ، وجادلهم بالتي هي أحسن ، وتغاضى عن كثير من سيئاتهم ، وعاتبهم في هواذة .. ولكن نيران الحسد كانت تغلي في قلوبهم ، فكان هدفهم وهدف المشركين واحداً في القضاء على دعوة الإسلام . فكانت لقاءات مسلحة معهم فيما بعد بسبب تأمرهم وتطاولهم ، انتهت بإجلائهم عن الجزيرة العربية .

٦ - ونزلت في المدينة آيات التشريع والمعاملات ... بعد أن كانت في مكة آيات تحض على الإيمان والصبر .

٧ - وبدأت تتجلى عالمية الدعوة الإسلامية في المدينة بوضوح أكبر « بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ » ، « أُرْسِلْتُ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ وَبِي خَتَمُ النَّبِيِّينَ » ، « أَنَا رَسُولٌ مِّنْ أَدْرَكْتُ حَيًّا وَمِنْ يُولَدُ بَعْدِي » .

٨ - وأصبحت تجارة قريش في خطر ، في ذهابها وإيابها إلى الشام . ولما

(١) عن « صور من حياة الرسول » ، بتصرف ، صفحة : ٢٦٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص : ٢٧٣ .

فكرت قريش في تغيير طريق تجارتها الى نجد ، وضع رسول الله ﷺ السرايا على طريق نجد ليحقق الحصار الاقتصادي على قريش •

٩ - وظهر المنافقون في المدينة المنورة بزعامة عبد الله بن أبيّ بن سلول الذي كان مرشحاً للزعامة قبل الهجرة ، ولقوة المسلمين لم يستطع المنافقون المجاهرة بكفرهم ، فاتخذوا موقف النفاق فأظهروا إيماناً وابتنوا كفراً •

١٠ - وضاعفت قريش من جهودها في محاربة الدعوة الإسلامية ، فأخذت تحرّض القبائل المحيطة بالمدينة على المسلمين ، وتولّب عليهم أعداء الإسلام في داخلها ، فكان من الطبيعي ايجاد قوة تحمي الدعوة من قريش والمشرّكين في المدينة واليهود من حولها ، ومن المنافقين الذين اتخذوا مسجداً ضاراً • • فكان القتال المسلّح الذي ثبتت أركان الدولة الإسلامية الناشئة بعد انتصار بدر •



خَاتَمَةٌ «يَا مُسْلِمُونَ» إِلَى هُنَا وَلَا أَبْعَدُ

هَجْرَةٌ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ

وهكذا عرضنا أحداث الهجرة، وأهم نتائجها ..

الهجرة التي حققت أهدافها كلها ، وآتت أكلها وثمارها المَرْجُوءة .

لقد كان بناء المسجد أول عمل قام به رسول الله ﷺ عند وصوله إلى المدينة ، وهذا يدل دلالة قاطعة على أهمية المسجد في تاريخ الإسلام ، لقد كان « برلمان » الأمة ، ففيه عقدت الرايات المظفرة للفتح شرقاً وغرباً ، ومنه تخرج قادة هذه الرايات الخفّاقة .

المسجد يا مسلمون كما أراد رسول الله ﷺ ، غدا رمزاً لما يتسم به الإسلام من شمول وتكامل ، فقد أصبح مركزاً روحياً لممارسة الشعائر وأداء العبادات .. ومدرسة علمية وتشريعية يجتمع في ساحتها أصحاب الرسول الأعظم ﷺ ، وتدار في باحاتها الندوات، وتلقى من على منبرها المتواضع التعاليم والكلمات،

ومؤسسة اجتماعية يتعلم المسلمون فيها النظام والمساواة والمودة والتكافل والرحمة ..

المسجد .. الخلية الأولى للبناء الاجتماعي للأسرة والجماعة ، بوصفه أداة لصهر المؤمنين في الإسلام في وحدة فكرية ، من خلال حلقات العلم والقضاء والعبادة والبيع والشراء ، وإقامة المناسبات المختلفة .. فلم يكن المسجد معبداً ، أو مقراً للصلاة وحدها ، بل كان شأنه شأن الإسلام نفسه متكاملًا في مختلف جوانب الدين والسياسة والاجتماع .

يا عرب ، يا مسلمون : المدينة أضحت بعد الهجرة مَنَوَّرَةً ، فَبِمَ تنوَّرت ؟

لقد تنوَّرت بأنوار رسول الله ﷺ ، وبعلمه وبروحه وبتركته وبركته وبتعاليمه .

يا عرب ، ويا مسلمون : زوجات النبي الكريم أمهاتكم ، فهو بالتالي أبوكم ، فإلى متى الزهد فيه ، والابتعاد عنه .

يا عرب ، ويا مسلمون : « إلى هنا ولا أبعد » ، إنه المصطفى ، بدركم الذي لا يغيب ، ونجم سعدكم الذي لا يأفل ، ولن يصلح أمر هذه الأمة إلا بما هبط عليها من سمائها ، وبما نبع فيها من أرضها .

يا عرب ، ويا مسلمون : اجعلوا نشيدكم « طلع البدر علينا » ، إن أردتم عودة إلى عزتكم ومجدكم ، واجعلوا نشيدكم « جئت بالأمر المطاع » ، إن أردتم عودة إلى وحدتكم وتضامنكم ..

يا عرب ، ويا مسلمون : محمد بن عبد الله وحدكم ولم يفرقكم ، وجمع شملكم ولم يشتتكم ، ووسَّع رقعة أخوتكم ولم يقلصها .

محمد بن عبد الله جعل في أمتكم المفككة التقدم بدل التخلف ، والعز

بدل الذل ، والنصر والغلبة بدل القهر والتبعية • محمد بن عبد الله — النبي العربي — جعل النازحين اللاجئين في دولته اليهود الذين مكروا بدين الله ، وأكسبوا عليه القبائل • وعندما غابت تعاليمه ، النازحون اللاجئين هم عرب" أخرجهم اليهود •

لقد كانت الهجرة قبل فتح مكة فرضاً على كل مسلم : « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ، والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا » (١) • • •

كانت هجرة الى الله ورسوله ، فمع تجميع قوى المسلمين في المدينة ، كانت الهجرة الى الله ، أي الى مجالس العلم والتربية والأخلاق والتزكية قرب رسول الله •

فيا مسلمون هجرة الى الله ورسوله ، وعن ابن عباس قال ﷺ : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، فقال الرجل : فما الهجرة ، قال النبي الكريم : تهجر السوء ، قال الرجل : فأني الهجرة أفضل ، قال رسول الله ﷺ : الجهاد » •
فيا عرب ، ويا مسلمون : « لا هجرة بعد الفتح » ، فهاجروا الى الله ورسوله ، وهاجروا السيئات ، التي من أعظمها البعد عن الإسلام ، ونبي الإسلام •
يا عرب ، ويا مسلمون : اجعلوا من إسلامكم مشاهدات في أعمال ، لا أقوال ونظريات ، اجعلوه إيماناً يملأ القلوب ، وحشوة نورانية للروح ، ليراه الآخرون ثماراً في الأخلاق وفي السلوك ، وجمالاً لكل ذي عينين ، اجعلوه إسلام فضائل وأخلاق في نفوس مطمئنة بالله ، مزكاة محمية بعناية الله ، قلوباً متصلة بالله حتى تصبح بحراً زاخراً بالعلم والحكمة والمعرفة •

نبيكم يا عرب ، والله نسيح وحده ، لقد أراد المشركون الوثنيون واليهود

(١) سورة الانفال ، الآية الكريمة : ٧٢ •

أن يطبقوا على الرسالة والنبوة ، كما أطبقوا على الأنبياء من قبل ، ولكن هذا محمد بن عبد الله ، فلئن نجا عيسى عليه السلام بمعجزة ، ونجا إبراهيم بمعجزة ، وموسى بمعجزة .. فإن محمد بن عبد الله أخذ ثأر الأنبياء قبله من أعداء النبوة ، وقتلهم ، وحطم كفرهم وعنادهم ، وحقق جيشاً ودولة عالمية إنسانية فاضلة ، متأخياً فيها الأسود مع الأبيض ، والعربي مع الأعجمي ..

دينه .. دين الحياة ، ودين المجد ، ودين النصر ، ودين العظمة ، وضالة الأمم .. إنه الإسلام .. الذي يجمع ولا يفرق ، الذي يجعل العلوم بكل صنوفها فرضاً ، الإسلام الذي ينهض بالامة في كل ميادينها ، اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً وفكرياً وتربوياً وخلقياً ..

واليوم في ذكرى الهجرة ، وفي مطلع القرن الخامس عشر الهجري ، أين هجرتكم يا مسلمون ؟ هذه أعمال النبي ، فأين أعمالكم ؟ هذه تضحيته ﷺ ، وتضحية المهاجرين والأنصار ، فأين تضحيتكم ؟ هذا صمود الرعيل الأول ، فأين صمودكم ؟ وهذا تاريخهم الذي صنعوه ، وليس عندنا ما نرفع به رأسنا إلا به ، فأعمالهم كانت للأجيال من بعدهم فخراً ومجداً وعيداً. وذكريات مشرفة ، فأين تاريخكم الحاضر الذي تفخرون به ؟

أين هجرتنا ؟؟ صاحب ذكرى الهجرة يقول « لا هجرة بعد الفتح » ، أي لا هجرة جسدية من مكة إلى المدينة ، لأن مكة صارت دار إسلام ، ولكن الهجرة مستمرة لا من أرض إلى أرض ، بل هجرة من الجهل إلى العلم ، وهجرة من الغفلة إلى الذكر ، وهجرة من البعد إلى الصلة به سبحانه .

هجرة من البخل إلى البذل والعطاء ، هجرة من اللغو إلى الجد والهمة والعزيمة ، هجرة من الرذائل إلى الفضائل ، ومن الشر إلى الخير ، ومن البطالة إلى العمل .

هاجروا وذكر الله هجرتهم ، والهجرة ثمرة وفرع من شُعَب إيمانهم ،

والإسلام بضع وسبعون شعبة ، فإن وُجد الأصل ووجدت الشجرة ، وجدت الفروع ، ووجدت الثمار ، ومن ثمار الإيمان والإسلام في المؤمن الهجرة ، فإذا دعاك الله إلى عمل فهذه هجرة « فالمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » .

والمؤمن الحق اليوم : « مهاجر أنصاري » ، مهاجر إلى الله في كل أعماله ، وأنصاري في إخوته مع المسلمين .

فيا عرب ، ويا مسلمون : إلى هجرة روحية قلبية إلى الله ، وهجرة فكرية إليه ، هجرة أعمال وأخلاق والتزام .

لقد كانت الهجرة ثمرة من ثمرات تربية رسول الله ، استطاع أن يقنعهم أن يخرجوا عن كل شيء في سبيل الله ، فهل عندك أيها المسلم قناعة أن تبذل ما عندك في سبيل الله ؟

فيا عرب ويا مسلمون .. اهجروا كل ما سوى الله ورسوله .

واهجروا كل ما سوى دينكم الذي ارتضاه الله لكم .. فأنتم مهيئون اليوم للقيام بالدور نفسه الذي قام به المهاجرون والأنصار ، بعودتكم إلى ذاتيتكم ، ومصدر وحدتكم وعقيدتكم . يقول عز وجل :

« فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكره أو أنثى ، بعضكم من بعض ، فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوطانهم في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله ، والله عنده حسن الثواب » (١) .

« إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجئون رحمة الله ، والله غفور رحيم » (٢) .

(١) سورة آل عمران ، الآية الكريمة : ١٩٥ .

(٢) سورة البقرة ، الآية الكريمة : ٢١٨ .

« والذين هاجروا في الله مِن° بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً° ،
ولَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ° لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ، الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » (١) .
« الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ°
دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ، يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ
وَجَنَاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ » (٢) .



(١) سورة النحل ، الآية الكريمة : ٤١ و ٤٢ .

(٢) سورة التوبة ، الآية الكريمة : ٢٠ و ٢١ .

المحتوى

٥	تصدير
١١	الهجرة إلى الحبشة
١٤	* أسباب الهجرة الى الحبشة
١٦	* طلب المهاجرين من النجاشي
١٨	* بين المهاجرين وبين النجاشي
٢١	* المهاجرون يفرحون بانتصار النجاشي
٢٢	* ازدياد حقد قريش بإسلام عمر بن الخطاب
٢٣	* المقاطعة
٢٤	* العائدون من أرض الحبشة
٢٥	* نقض الصحيفة
٢٨	* أسئلة عديدة تطرح نفسها عما سبق من أحداث
٣٤	قبيل الهجرة
	* الرسول ﷺ في الطائف ، وموقف ثقيف منه
٣٦	* من نتائج رحلة الطائف
٣٩	* رسول الله ﷺ يعرض نفسه على القبائل
٤٢	* ملاحظات حول ما سبق
٤٦	طلائع الفجر ، بيعة العقبة الاولى « بيعة النساء »
٤٨	* نظرات في بيعة العقبة الأولى
الهجرة (٩)	- ١٢٩ -

- ٥٢ بيعة العقبة الثانية ، بيعة الحرب ، البيعة الكبرى
٥٧ * نظرات في بيعة العقبة الثانية
- ٦٢ نزول الأمر بالقتال
٦٩ للمهاجرين إلى المدينة
- ٦٩ * ملاحم المهاجرين إلى المدينة
٧١ * ساحتان
٧٣ * هجرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه
- ٧٦ هجرة الرسول الأعظم ﷺ
٧٧ * في دار الندوة « الانتقال من الأيذاء إلى الإفتاء »
٨٣ * إلى غار ثور
٨٧ * جنون قريش
٩٠ * معجزات ثلاث
٩٢ * في غار ثور
٩٤ * الوداع
٩٥ * ركب يمضي على بركة الله وعنايته
٩٧ * سراقه بن مالك بن جشم المدلجي
٩٩ * حديث أم معبد
١٠١ * ذكاء أبي بكر الصديق
١٠٣ * الركب المبارك في قباء
- ١٠٢ مصور الهجرة
١٠٧ * بناء مسجد رسول الله ﷺ
١٠٧ * في بيت أبي أيوب الأنصاري
١٠٨ * أول خطبة لرسول الله ﷺ في المدينة

١٠٩	* الرسول ﷺ يوادع اليهود
١١٣	* المواخاة بين المهاجرين والأنصار
١١٧	نتائج الهجرة
١٢٤	خاتمة :
	يا مسلمون « إلى هنا ولا أبعد » •
	« هجرة إلى الله ورسوله »



للمؤلف

صدر من سلسلة « المعارك الكبرى في تاريخ الاسلام » الأجزاء التالية :

- | | |
|------------------|---|
| ١ — القادسية | بقيادة سعد بن أبي وقاص • |
| ٢ — اليرموك | بقيادة خالد بن الوليد • |
| ٣ — نهاوند | بقيادة النعمان بن مقرن المزني • |
| ٤ — ذات الصواري | بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح • |
| ٥ — فتح الأندلس | بقيادة طارق بن زياد • |
| ٦ — بلاط الشهداء | بقيادة عبد الرحمن الغافقي • |
| ٧ — فتح صقلية | بقيادة أسد بن الفرات • |
| ٨ — الزلاقة | بقيادة يوسف بن تاشفين • |
| ٩ — الأرك | بقيادة المنصور يعقوب الموحدي • |
| ١٠ — العقاب | بقيادة محمد الناصر بن يعقوب الموحدي • |
| ١١ — مصرع غرناطة | « أبو عبد الله الصغير آخر ملوك بني الأحمر » • |



- ١٢ — الإسلام فوق الاتهام
- الطبعة الرابعة •
- « ترجم الى اللغة الفارسية » •
- ١٣ — من ضييع القرآن ؟
- الطبعة الثانية •
- ١٤ — الإنسان بين العلم والدين
- الطبعة الثالثة •
- ١٥ — هارون الرشيد
- الطبعة الثانية •
- ١٦ — غريزة أم تقدير إلهي ؟
- الطبعة الثالثة •
- ١٧ — آراء يهدمها الإسلام
- الطبعة الأولى •
- ١٨ — الإسلام وحركات التحرر العربية
- الطبعة الثانية •
- ١٩ — عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي
- الطبعة الأولى •
- ٢٠ — الهجرة « حدث غير مجرى التاريخ »
- الطبعة الأولى •

« تطلب من دار الفكر بدمشق »



To: www.al-mostafa.com